
www.kotobarabia.com
رواية
محمد جبريل
زمان الوصل
www.kotobarabia.com

زمان الوصل

رواية : محمد جبريل

إلى وليد

" أيها الإله العظيم . يا من أمرتنى بالهروب ، وحميتنى بالغربة . كن رحيماً ، وأعدنى ثانية إلى قصر الملك لأرى المكان الذى يسكن فيه قلبى ، وأن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت فيها ، وخرجت منها ، وبقرب من أحببت "

سنوحى

اليـ ـوم الأول

الشارع أتذكره . أميل إليه من صفر باشا . أمضى فى الأرض الترابية . على اليمين دكانان ، أحدهما مغلق ، والثانى ترزى ، عرض بذلة وحيدة فى الفاترينة الزجاجية . تقاطع الشارعان المتقابلان بميل واضح . فى المواجهة مقام أشبه بحجرة من الخشب الأخضر المتشابك ، التصق بجدار البناية المجاورة للبيت . النافذة الصغيرة تطل على الضريح ذى الكسوة الخضراء ، من حولها قصاصات ورقية وخرق وتعاويذ وأحجبة ..

البيت هو البيت نفسه ، الطوابق الستة ، الجدران أكلها ملح البحر ، والجدران المشققة تنز بالرطوبة ، وقضبان النوافذ الحديدية علاها الصدأ . الثياب تتطاير فوق مناشر الشرفات . المدخل . بضلفته الوحيدة المفتوحة . غارق فى رمادية خفيفة . تتناهى . من الداخل . أصوات فتح أبواب

وإغلاقها ، وأغنية فى راديو ، ونداءات ، وصرخات ، وشتائم ، وروائح تقلية ..

أميل إلى اليسار . واجهة البيت قبالة بناية ذات أسوار عالية . لم أحاول التطلع إلى ما بداخلها ، وإن خمنت أنها بناية مهجورة . هذا ما أذكره من الزمن القديم ..

أدلف من الضلفة المفتوحة فى الباب الخشبى ، المرتفع . أهمل النظرات المتسائلة وأنا أصعد السلم . يملى تصرفاتى ما أشعر أنى فعلته من قبل . أتحسس المفتاح فى جيبى . أمد أصابعى فأستعيده . الظلمة الشفيفة ، والسلمات التى تآكلت درجاتها ، وأوعية القمامة تبتعد عنها القطط بوقع الأقدام ..

هاهى الشقة كما أتذكرها . كأن توالى السنوات لم يبتعد بالمرة الأخيرة التى مضيت فيها إلى محطة الركاب البحرية . أصعد سلم الباخرة الضخمة . أبتعد عن البيت ، وعن الإسكندرية ثمانية عشر عاماً ..

أدس المفتاح فى الباب . ينفتح بما لم أكن أتصوره . حدست أن السنوات الأربع أو الخمس التى غاب فيها آخر ساكنى الشقة ستترك تأثيراتها . تطالعنى رائحة التراب والظلمة التى يغيب فيها الوقت . رائحة المكان الذى يفتح بعد

طول إغلاق . أعود بظهرى . بعفوية . إلى الوراء . أنفخ ما أحس أنه علق بفمى . أحرك يدى فى الهواء ، وأكتم أنفاسى وأنا أمضى . بالتذكر . ناحية النافذة المطلة على البناية المهجورة . أفتحها ، فيدخل ضوء النهار ، ونسائم الخريف المحملة برائحة البحر المحيط بالجهات الثلاث : الأنفوشى والميناء الشرقية والميناء الغربية . أتأمل ذرات التراب المتكاثفة ، تتخلل حزم الشمس التى تشكل نهاياتها بقعاً على الأرض ..

أعود إلى الصالة التى رقت فيها الظلمة . أرفع مفاتيح لوحة الكهرباء . المرئيات شاحبة ، ربما لقلة الإضاءة ، أو لتكاثف ذرات الغبار . الحجرات الخمس مغلقة أو مواربة ، يلفها الخواء والصمت . ثمة رائحة اختلطت برائحة التراب والرطوبة ، لكننى أستعيدها ، أشمها . تصل . بالألفة . أعواماً قديمة ..

أحاول أن أستعيد صورة الحياة . آخر زيارة لى إلى الإسكندرية مضى عليها عشرة أعوام : أين كانت تقيم أمى وأبى ؟ وأين كان يقيم توفيق ؟ وأين حجرة فاطمة وفردوس ؟ وأين حجرة القعاد ؟ وأين الصالون ؟. حتى التليفون غاب

عن الموضع الذى أتذكره . على طاولة صغيرة ، لصق الجدار ، أمام باب حجرة توفيق : هل نقله توفيق إلى بيته ، أو أخذه محمود ؟..

أعيد تأمل الصالة الخالية إلا من كنبة لصق الجدار المطل على نافذة المنور ، والباب المفضى إلى المطبخ والحمام ودورة المياه ، والحجرات التى أغلق معظمها ، كأنما لأتأكد من أن كل شىء كما ألفت رؤيته فى تلك الأيام البعيدة . ثمة رائحة أشمها ، وإن لم أستطع تحديد مصدرها ، ولا طبيعتها على وجه التحديد ..

هل هى رائحة الزمن ؟.

شعور غريب أعانيه فى وقفتى . بمفردى . وسط الصالة . الصورة التى أتذكرها : أبواب مفتوحة أو مواربة ، ومناقشات ، ورائحة الطعام تترامى من المطبخ ، وشخير جمعة فى رقدته على الكنبة . الصمت يتمطى فى الأبواب المتربة ، يعمقه شحوب الضوء المقابل من نافذة الحجرة المفتوحة ، الوحيدة ، ونافذة المطبخ . حتى الستارة المسدلة على نافذة المنور اكتست لوناً رمادياً بتراكم التراب . وكان

قد مضى سنوات على إغلاق النوافذ فى وجه الشمس ، فتأثرت الجدران برطوبة صنعت تكوينات متداخلة كالنشع ..

أذكر الحجرة التى لم أبدلها منذ انتقلنا من بيت شارع إسماعيل صبرى حتى غادرت الإسكندرية . أقمت فيها مع محمود . سريرى بجوار النافذة المطلة على الخرابة المهجورة . غاب سرير محمود من موضعه إلى جانب الباب ، أذكر بالقرب منه كومودينو صغير ، وفى المواجهة دولاب نضع فيه ثيابنا . إلى جواره مكتب ، تعلوه مكتبة ، صفت فيها الكتب ..

قال :

. مللت الحياة هنا ..

قال محمود :

. وإذا خرجت إلى العالم .. ألا تخشى الملل ؟

وهو يتجه إلى الفراغ :

. العالم ليس مدينة واحدة ..

. لابد أن ينتقل إليك الملل ..

. ما أعانيه ليس الملل وحده ..

وخنق صوته التأثر :

. يثيرنى العنف الذى يواجهنى به أبى ..

. تهرب بثورتك إلى الخارج ؟!

وضرب ركبته بقبضة يده :

. دافع عن وجهة نظرك ..

لا يذكر أين ، ولا متى ، جاءت اللحظة التى وجد نفسه فيها مدفوعاً ناحية الشمال . ركوب البحر ، والسفر إلى ما يختلط فى تصوره عن المدن البعيدة .. لكن الحلم الضبابى تحول إلى رغبة فرضت نفسها ، فهى لابد أن تتحقق . لم تعد تشغله حتى البواعث ، ولا الحياة التى يتوق إليها ، ولا العقبات التى قد يواجهها ..

لم يكن ما حدث مع أبيه ، هو . وحده . الباعث لأن يعد أوراقه ، ويستخرج جواز السفر ، ويركب الباخرة إلى حيث لا يدرى . رؤية العالم حلمه الذى توقظه صفارة من الميناء القريب ، أو مجموعات البحارة فى شوارع الإسكندرية ، أو حديث فى المقهى يجتذبه بحكايات يتخيل رؤيتها . يتنقل بين الموانى والمدن . يتعرف إلى ما كان قد اقتصر على القراءة . يتجه إلى دنيا غير الدنيا التى ألفها ، وكرهها ..

ظلت الرغبة فى الخروج إلى العالم تناوشه . يبعدها . تسيطر عليه . يلتقط ملاحظة ، أو عبارة ، فتعود الصورة إلى بؤرة التذكر . يلح عليه ما تصور أنه نسيه ..

الباخرة تشق الأمواج . تتجه إلى المعنى الذى أراده ، وإن لم يتبينه جيداً . بدا مختلط الملامح فى روايات البحارة ، وما ارتسم فى خياله . عرف أن الحياة فى البحر ملك لقبطان الباخرة . هو العرف والقانون والإرادة التى تأمر بما يجب على الجميع تنفيذه ..

كانت المشاعر متباينة فى داخله . ميناء الإسكندرية يبتلعه الأفق . الحزن والقلق والخوف والترقب ، ومشاعر أخرى ألزمته الصمت ، فاكتفى بالتطلع إلى الخط الرمادى ، حتى غاب تماماً ..

داخله الخوف من آفاق المياه المحيطة بالباخرة . تلتقى فى نهاياتها . بآفاق السماء . لا شئ إلا البحر والسماء ، ونصيحة يوسف صديق المشفقة بأن يبتلع حبة الجرافينول حتى يألف دوار البحر ، ويتغلب عليه ..

أين هو من ذلك البيت البعيد ، يطل على مقام الولى ، وعلى شوارع ضيقة وحوارى وأزقة ؟ أين هو من أبيه

وأمه وإخوته ولطيفة ؟ وهل كان أبوه مخطئاً ؟ وهل كان عليه أن ينصت لإلحاح لطيفة بأن يواصل الدراسة ؟ وهل انتهت حياة البحر بالعمل فى دكان ميخاليدس ، والزواج من كريستينا ؟..

اليـ وم الثانـى

أصحو على صوت الأذان من مسجد قريب . لعله أبو العباس أو طاهر بك . أعانى لحظات اختلاط الإحساس بالحياة فى بيريه ، والعودة إلى البيت . أنفض رأسى كأنما لأستوثق من اللحظة التى أعيشها . أضىء زر النور القريب . أتطلع إلى الضوء الشاحب المتسلل . من الشارع . عبر النافذة المواربة . أحاول أن أعود إلى النوم ، فلا أستطيع . تصورت أنى . حين أضع نفسى فى السرير . سأعوض تعب أيام قاسية ، فائتة . لكن طرف الخيط ما يلبث أن يجر خيوطاً كثيرة ، تختلط وتتشابك . تملأ الذهن بالكثير من الملامح والكلمات والتعبيرات والمواقف التى عانيتها ، والعابرة ..

الصور واللوحات المنتزعة من المجلات الملونة ظلت فى مواضعها على الجدران ، وإن بدت الملامح شاحبة ، أو مطموسة . على المكتب الصغير أوراق جريدة قديمة ، حال لونها ، وتقصفت حوافها : الحاكم العسكرى يفرض حظر التجول .. جنود الأمن المركزى دمروا المنشآت فى شارع

الهرم . خمس سنوات على بدء ركوبى البحر . أتوقع الأخبار فى الباخرة ، ثم فى بيريه ، من موجات المصادفة فى الإذاعات ، أو لقاءات المصادفة بالمصريين ..

أفتح الباب على صوت الجرس . يدخل الرجل إلى وسط الصالة ..

. لا تذكرنى ؟

ثم وهو يربت صدره بأصابعه :

. أنا عمك أدهم ..

أدرك أن لثغته بسبب السن الأمامية ، الناقصة ..

مضى عشر سنوات ، وربما أقل ، على آخر عودة لى إلى الإسكندرية . أذكر أنى التقيت بالرجل على الدرجات الثلاث ، بجوار مقام سيدى منصور ، أول الشوارع الضيقة المتعرجة ، المفضية إلى رأس التين . القامة ضئيلة ، جافة ، غابت النضارة عن نظرة العينين ، ووخط الشيب فوديه ، ونبتت فى ذقنه شعيرات خشنة ، وتداخلت أسنانه كمنشارين ملتصقين . يرتدى لاسة وصديرياً وسروالاً فضفاضاً طويلاً ، ويدس قدميه فى حذاء كساه التراب ، وتمزق من جانبه ..

. حمد الله على السلامة ..

وفى لهجة محملة بالود :

. غيبة طويلة ..

ويصطنع ابتسامة :

. أين كنت ؟

أظل صامتاً ، لا أعلق ، ثم أقول :

. عدت أخيراً ..

أعد حقيبته . فى ليلة الإبحار الأولى . وجلس فى غرفة القعاد ، ينتظر نداء يوسف صديق . تشاغل بالكلام مع أبيه وأمه وإخوته . تمدد جمعة على كنبة الصالة فى الموعد الذى لا يبدله بعد صلاة العشاء . رمقه أبوه بنظرة محملة بالإشفاق والغضب ، ومضى إلى حجرته . استأذنت فاطمة وفردوس بتقدم الليل . قبلتاه ، وصحب ناجى قشطة زوجته إلى بيتهما ، ودخلت فردوس غرفتها . أدرك أنها تفر من لحظات الفراق . أمه وتوفيق ومحمود ظلوا معه إلى قرب الفجر . ترامى نداء يوسف صديق ، فتهيأ للوداع ..

قالت الأم وهى تغالب دمعة : اللقا نصيب . هل كانت تدرك أنها سترحل فى غيابه ، ولن يلتقيا ثانية ؟

كانت أشد من أبيه رفضاً لفكرة الرحيل . لا ينقصك شئ ، فتفكر فى السفر . لم تكن تملك صوت أبيه الراعد ، ولا عباراته المهددة ، لكن الحزن بدل ملامحها . زادت استطالة وجهها ، ومال إلى الشحوب ، وكومت شعرها فوق رأسها ، وثمة تقاطعات من العروق الزرقاء تحت البشرة . أسلمت نفسها إلى الصمت فى هيئة من يخفى أمراً لا يريد البوح به ، وعيناها الملتمعتان بمشاعر غاضبة لا تتوقفان عن التلفت ..

توالت الأيام ، فالأشهر ، على آخر رؤيته للإسكندرية فى وقفته على الباخرة . نقاط ضوء ، صغرت ، وذوت ، ثم تلاشت ..

قالت كريستينا :

. هل أمضيت عمرك كله فى البحر ؟

قال :

. لم أولد فى البحر .. لكن حياتى العملية بدأت منذ ثلاث سنوات ..

. ماذا كنت تعمل فى الإسكندرية ؟

ظل صامتاً . استحثته بنظرة مشجعة ..

وهو يغالب الشرود :

. أتعلم ..

. لكنك تجيد البيع والشراء ..

. ربما لأنى كنت أصحب أبى فى عمله ..

خالط صوتها حنو واضح :

. لو أنك ظللت بهذا المستوى .. فسأراهن عليك ..

أدرك . تلك اللحظة . أنه يحبها . اجتذبته البراءة الطفولية ، وعفوية الكلام والتصرفات . داخله فى تأمله لملامحها إحساس يصعب تبينه . ليس إحساساً بالسعادة ، ولا بالنشوة ، ولا الارتياح ، لكنه تلخيص ذلك كله ، أو أنه إحساس مغاير تماماً ، يطمئن إليه ، ويتمنى أن يمتد بلا انتهاء ..

هز رأسه دلالة الفهم :

. يهمنى كذلك رهان جدك ..

يعيد عم أدهم القول :

. حمد الله على السلامة ..

يلمح اتجاه عينى ناحية شرخ يمتد متعرجاً داخل الجدار أعلى باب المطبخ ..

ـ واجهت الإسكندرية زلزالاً منذ عامين ..

وفى نبرة تأكيد :

ـ لم تتأثر البناية والحمد لله ..

يتوتر صوته بانفعال :

ـ جميل أن تعيد فتح الشقة ..

يستطرد فى انفعاله :

ـ إذا كانت الأسرة قد تركتها ، فنحن أهلك .. ناد : يا عم أدهم ..

***

الحديقة الواسعة أشبه بالحدوة ، أو نصف الدائرة ، أمام سراى رأس التين . سدت الطرق إليها حواجز وكردونات ، يقف وراءها جنود . زادت تأثيرات الأملاح بالرطوبة فى واجهات البيوت ، قبالة الشاطئ . طيور النورس تحلق فوق الساحل . اختفى الشاطئ الرملى للأنفوشى وراء الكبائن الخشبية ، وتلاصقت ورش المراكب ، من بداية الشاطئ إلى ما بعد الحجارى .

كل الأمكنة أضيق مما أتذكره . النسوة والأطفال يلمون البسارية التى تسقط على الأرض ، عند نقل الأسماك

إلى الطبالى فى حلقة السمك . غابت ساحة لعب الكرة المجاورة لمبنى الحلقة ، هى مبنى لحى الجمرك . الأولاد فى الشوارع الخلفية والحوارى يلعبون البلى والدوم ، ويتابعون الطائرات الورقية . تهدمت ، أو أزيلت ، بيوت قديمة . شيدت فى موضعها بنايات جديدة ، عمارات عالية ، ذات نوافذ قصيرة ، ومناشر غسيل ، وتعلو الأسطح أطباق الدش وإيريال التليفزيون . بيوت السيالة على حالها . فيما عدا بيوت ، جر أولها . فى سقوطه . ما جاوره ، ظلت المساحة خلاء ، أو أقيمت بيوت قديمة محلها ..

بيوت السيالة هى ما بقى فى الذاكرة ..

تأخذنى الدهشة فى ميدان أبو العباس . تقلصت المساحة الهائلة . المبنى الذى يتوسطه بنوك ومحال للطعام والأقمشة والأجهزة الكهربائية والمجوهرات وأدوات التجميل . مواكب الزفاف التى كانت تلف فى دائرة أمام الجامع : اقروا الفاتحة لابو العباس .. يا اسكندرية يا أجدع ناس . أين ذهبت ؟ وأين ذهبت الموالد وخيام الصوفية وحلقات الذكر ؟

لافتة مدرسة مصر الفتاة على الباب المغلق . المصاريع المنزوعة من النوافذ تشى بطول توقف الدراسة ..

رفضت الأم نقل هاشم من روضة مصر الفتاة إلى راتب باشا الابتدائية :

. اجعله يحيا طفولته قبل أن يدخل الابتدائى ..

علا صوت الأب :

. الروضة لن تضيف إلى تعليمه ، لكنها ستكلفنا ما يحتاج إليه أخوته ..

أتراجع إلى الوراء . غاب مقام سيدى محمد شرف ، على ناصية رأس التين والتمرازية . يبدو متداخلا فى دكان لبيع الأدوات المنزلية . تكومت البضاعة على الرصيف ، فغطت المقام ذى الباب الأبيض ، والمساحة المحددة ..

قالت لطيفة :

. كنت أقرأ الفاتحة لسيدى محمد شرف كى يوفقنى الله فى المذاكرة ..

ثم وهى تدارى الخجل فى ملامحها :

. أقرأ الفاتحة الآن ليبقى حبنا ..

تفرس فيها بعينين متوجستين :

. لماذا لا يبقى ؟

. أنت تتكلم كثيراً عن نيتك فى السفر ..

ازدرد ريقه :

. أسافر للعمل لا للفسحة ..

وبرقت عيناه باهتمام :

. لن يقبل والدك زوجاً عاطلاً ..

أعيد تأمل المبنى المجاور لحلقة السمك . أغمض عينى ، أحاول تذكر صورة المكان . الساحة الترابية وعربات النقل تضيف إلى مساحتها بما تنقله من ردم البنايات . تمتد الأرض الترابية . بتسوية البولدوزر . فى اتجاه البحر ، تتسع المسافة بين الكورنيش والشاطئ . المبنى من ثلاثة طوابق ، علقت على الباب ذى الدرجات الرخامية لافتة كتب عليها " حى الجمرك " . سينما التتويج : فيلم سعد عبد الوهاب ونعيمة عاكف " عيش وملح " ولهجة لطيفة المحتجة : وافقت على دخول السينما ثقة فى أخلاقك . غابت واجهة الأفيشات الملونة للعروض المستمرة . احتلت موضعها بوابة جراج هائلة من الصاج والحديد . سيدى على تمراز يطل على ساحة ضاقت بالبنايات الجديدة ومواقف السيارات . غابت الفوانيس الخمسة وسط الميدان . المساحة المحدودة تشى باستحالة عودة سوق العيد فى رمضان والعيدين . لم

تعد المكتبة الحجازية . على ناصية شارع الميدان . فى مكانها . حل . بدلاً منها . دكان لبيع الفاكهة . القراءة ذكرى قديمة . أقلب الكتب ، أشترى ، أستعير ، أهمل تحذيرات أمى ، وصوت أبى الراعد . يخذلنى محمود حين أحاول جره إلى لحظات القراءة ، فلا أواجه ردود الأفعال بمفردى ..

أعاد محمود الكتاب إلى الكومودينو :

. أين الروايات فى قراءاتك ؟

وأعاد خصلة الشعر المتهدلة إلى موضعها :

. لم تعد تقرأ إلا كتب الرحلات ..

غالب التردد . ربما أراد محمود التيقن ما إذا كان يعد للسفر ، أم أنه ألغى الفكرة ..

. ما يهمنى أقرأه ..

مد محمود يده يعيد تقليب الكتاب :

. تعلم ركوب البحر لا يوجد فى كتب الرحلات ..

وران على صوته فتور واضح :

. لو أنك اشتغلت على باخرة .. ما العمل الذى تتصور أنك تجيده ؟

تبدل صوته تماماً :

. تشغلنى فكرة السفر فى ذاتها ..

وهز قبضته :

. المهم أن أرحل ..

أطيل التحديق فى المطلين من الشرفات والنوافذ ، والجالسين على أبواب البيوت والدكاكين والأرصفة . أحاول التعرف إلى وجوه ، أصِل أُلفتى برؤيتى لها قبل عشر سنوات ..

أمضى فى شارع الميدان . لم يتغير عما كان فى ذاكرتى ، وإن زاد زحامه . الدكاكين بظت بضاعتها إلى الطريق . ثمة أصوات متباينة . صيحات ونداءات ودعوات وشتائم وأغنيات مختلطة من أجهزة الكاسيت . أتذكر ثيابى الملقاة على السرير ، وفى الحقائب . أشترى حبلاً من دكان عبد الله العلاف ، أسفل مسجد الشوربجى . فى بالى أن أفرد بين مسمارين أدقّهما فى الحائط . أشترى كرسيين من دكان على ناصية وكالة الليمون . أكتب له عنوان البيت ، وأواصل السير . أعيد التأكد من موضع عم متولى بائع الثلج . غاب عن ذاكرتى إن كان فى ناصية شارع فرنسا ، أم فى

التقاء رأس التين بإسماعيل صبرى . دخلت الثلاجات البيوت ، فاستغنى عم متولى عن بيع الثلج ، واكتفى ببيع المياه الغازية . لم يعد الكشك الخشبى فى أى موضع . هل انتقل بعيداً عن بحرى ؟ ..

يسبق سؤالى التوقع :

. أين أحمد الطيبين ؟..

يقول العامل وهو يضرب بالسكين حافة صينية الهريسة :

. تعيش انت ..

أشعر بالألفة لرؤية وجوه فى النوافذ ، وداخل الدكاكين ، وعلى الأبواب . غابت وجوه أتذكرها ، وحلت أخرى لا أعرفها ، تبدو غريبة عن ذاكرتى ، فلم ألتق بها من قبل . . تترامى الأغنيات من قهوة فاروق . ترددت على أبى وهو يجلس بمفرده يدخن النارجيلة ، أو مع أصحابه ، فى صخب النداءات وتبادل الشتائم ، وقرقعة الدومينو على الطاولات . أرنو إلى اللافتات ، ومناشر الغسيل ، والأرايل الهوائية ، وأطباق الفضائيات ، والطائرات الورقية ، وزرقة سماء سبتمبر . أطيل التوقف أمام بيت الرويعى . الواجهة المتشققة

الطلاء ، والنوافذ الخشبية العالية ، والمدخل المفضى إلى سلالم متآكلة ، فى موازاة داربزين حديدى تقشر لونه ، فلم يعد إلا اللون الأسود بتراكم العرق ، وقعدة السطح للمذاكرة مع عصام الرويعى ..

أين ذهب عصام ؟ أين ذهبت أسرته ؟ ..

عدنا من سينما ريالتو بعد أن شاهدنا فيلم ميلينا ميركورى " أبداً الأحد " . وضع عصام شريط أغنية الفيلم فى " الريكورد " ، وشرد فى أفق الميناء الشرقية ..

قال عصام :

. كل سكان الإسكندرية يستطيعون رؤية البحر من النوافذ .. وإن تعذر فمن أى مكان مرتفع ..

ثم وهو يفرد ذراعيه :

. أما بحرى ، فأنت تستطيع أن تتحدث عن البحر دون أن تذكره .. لكنك لا تستطيع أن تتحدث عن بحرى دون أن تصله بالبحر ..

كانت الدنيا غروباً . اختفت الشمس فى نهاية الأفق ، وإن خلفت بقايا ضوء شديد الاحمرار ، والنسائم المنعشة تهب من ناحية البحر ، والطائرات الورقية تتناثر فى

ارتفاعاتها ، وأصوات أولاد يلعبون الكرة تترامى من الساحة الترابية المجاورة ، وصرير عجلات الترام فى الطريق إلى الأنفوشى . وثمة يمامة واقفة على سور السطح . تقافزت ببطء ، ودارت حول نفسها ، ثم طارت ..

استمعت . للمرة الأولى . فى ذلك اليوم ، باسم بيريه . تكررت استعادتى للاسم ، ولصورة المدينة فى الفيلم ، كلما استمعت إلى الأغنية ..

بيريه ، أول الموانى التى شاهدها بعد أن غادر الإسكندرية . بدا مختلفاً . من وقفته على سطح الباخرة . عن ميناء الإسكندرية . مدينة فوق ربوة ، تطل على جزر قريبة وبعيدة . معظم البنايات يغلب عليها اللون الأبيض ، واللون الأزرق فى النوافذ . وثمة . على امتداد الساحل ، وفى الداخل . يخوت وسفن صغيرة وقوارب تنقل الركاب والأمتعة والبضائع الصغيرة من البواخر وإليها ، والمستودعات والحاويات والأجولة وبلوطات الخشب والصناديق والبراميل والحبال ، والبحارة وعساكر الميناء والعمال والعتالون وعربات اليد ، وطيور النورس تعلو بصيحاتها الزاعقة ، والجبال الصغيرة المطلة على الميناء ..

لم تعد المرئيات مألوفة ولا عابرة . كل ما يراه يلفت انتباهه ، يعيد تأمله ، أو يدهشه . رأى البنايات العالية ، والبيوت الطينية ، والأكواخ ، والكنائس ، والحدائق ، والتماثيل . عرف الفنادق الرخيصة ، والبضائع المهربة ، وأماكن استبدال العملة ، والبارات ، والأركان الخافتة الضوء ، والمقاهى التى يلتقى فيها من يتحدثون العربية ..

غاب شرط الرحلة الدائرية . أقصى مدة لها ثلاثة أشهر . الباخرة بيته الذى لا يفارقه حتى تصل إلى أى ميناء ، فينزل فيه ..

قال :

ـ لن أمل البحر حتى أفقد القدرة ، فأكتفى بالتذكر ..

بوسعه التعرف إلى الجهة التى قدم منها البحار . هذا أمريكى .. هذا فرنسى .. هذا صينى .. يابانى .. من أوروبا الغربية .. من أوروبا الشرقية ..

لا تقتصر ذكريات البحارة على مدينة ما . لا يشدهم الحنين إلى مدينة بذاتها . يقضون فى بعض الموانى ساعات قليلة ، تمتد فتبلغ ثلاثة أيام أو أربعة . ينزلون المدن ، يتجولون فى الشوارع ، يترددون على المقاهى والبارات

والكازينوهات والأسواق . تعلم . فى زياراته إلى مدن الساحل . أن تمضى جولاته فى موازاة البحر . إذا اختلطت عليه الشوارع ، سأل عن البحر . يجعل البحر بوصلة تطمئن إليها خطواته . يعود . كل مساء . إلى الباخرة ، أو يأذن له القبطان فينزل فى لوكاندة . ربما ذوت الحادثة السخيفة حين ينتهى به الشجار فى مقهى إلى قضاء ليلة فى قسم الشرطة . يهمل الظروف القاسية والتعنيف والخوف من الآتى . هو الآن بعيد ، لا يذكر إلا الجوانب التى تستدعى البسمة ..

تشغله العلاقة التى يثق فى انتهائها بنهاية اللحظة ، صداقة الحانة أو القطار أو الأوتوبيس أو المقهى . يطول الحوار . يأخذ ويعطى . ربما فض عما بنفسه من أسرار شخصية . يحل الود والمؤانسة . لكن أفق النهاية فى مدى النظر . يعرف إنه سيأخذ الفراق معه ، وهو ما سيفعله من يجالسه . ربما علقت فى الذاكرة عبارة يستعيدها ، يتأملها ..

لم يخرج من حياة البحر بصداقات ممتدة . كان البحارة من بلدان مختلفة ، يتحدثون لغات بلادهم ، وإن لجأوا إلى الإنجليزية . والإشارة أحياناً . وسيلة للتفاهم .

شدد على تبادل الرسائل ، والمكالمات التليفونية ، ومحاولة اللقاء . كتب العناوين ، وأعطى عنوانه فى بيريه ، ثم أهمل ما كان ينتظره ، وما وعد به ..

كانت الشمس قد علت البنايات ، واستطالت الظلال ، وتشكلت تكوينات رمادية على الأرض والجدران . أفطن إلى أنى أجول فى الشوارع . دون طعام ، ودون راحة . منذ الضحى . اختصر الطريق من شارع أبو وردة ، إلى شارع خلف السور ، وأميل من شارع أحمد كشك فى طريقى إلى البيت ..

اليـــوم الثالث

لم أحاول ، ولا فكرت ، فى أن أفتح بقية حجرات الشقة . ظلت مغلقة . كما هى . أو مواربة . لم أتوقع إلا الفراغ والصمت . لكن التردد غلبنى ، فظلت الحجرات على حالها . أعانى فى تنظيف الصالة وحجرتنا . محمود وأنا . والمطبخ والحمام ودورة المياه . ما أحتاج إليه بمفردى . أنظر إلى المرآة الصغيرة ، أعلى حوض الحمام . غطتها طبقة من التراب . أتأمل فيها ملامحى ..

ماذا بدلت الأعوام ؟

ألاحظ الشعيرات البيضاء فى رأس محمود ، والتجاعيد الخفيفة حول العينين الخضراوين ، وإن ظلت الحمرة التى تصبغ الوجه ، والملامح المنمنمة ، وخصلة الشعر النائم المتهدلة على الجبهة ..

أعادت كريستينا تأمل الوجه القمحى ، المستدير ، تتوسطه عينان عسليتان ، ويحيط به شعر الرأس فى نصف دائرة تصل إلى ما بعد الأذنين ، والجبهة العريضة ، والنظرة المباشرة ، والأنف الدقيق بما لا يتسق مع اتساع العينين واستدارة الوجه ..

واجهت عينيه :

. يرى جدى أن أميز ما فى وجهك أنه يعكس ما بداخلك ..

داهمه جيشان عاطفى :

. هل راقه ما بداخلى ؟

وهى تنحى وجهها عن اتجاه نظراته :

. يكفى أنه أذن لك بأخذ حفيدته ..

ماتت أمى ، ومات أبى ، ومات جمعة . عرفت بموتهم فى رسائل توفيق المتباعدة . كانت رسائلى متباعدة أنا أيضاً . وكان محمود وفردوس آخر من ترك الشقة . أغلقاها ، فظلت خالية ..

الشقة تطل على الميناء الشرقية ، وتطل . من الجانب الأيمن . على نادى اليخت . أشار محمود إلى حاجز

الأمواج بين السلسلة وقلعة قايتباى ، وإلى القوارب المتناثرة إلى مدى الأفق ، ومرسى السفن فى انحناءة الطريق إلى الأنفوشى ..

يسحب كرسياً من التى تناثرت فى الشرفة :

. موقع لقطة ..

يظل صامتاً ، وإن اتجه ناحيتى بنظرة متسائلة ، كأنه يتوقع كلمات يهمنى البوح بها . ثم يعلو صوته بنبرة متباطئة :

. أصارحك أنى اتخذت قرار إغلاق الشقة فى اليوم الرابع لوفاة أمنا . انتهت أيام العزاء ، ووجدت الشقة خالية إلا منى ..

يعبر عن تأثره بمط شفته السفلى . أتذكر أن هذه هى الحركة التى كان أبى يعبر بها عن انفعالاته :

. شعور مؤلم بالوحدة والذكريات القاسية ..

ثم يشير . ثانية . إلى الطريق :

. ميزة هذه الشقة أنها ونس ..

أرنو إليه بنظرة متوددة :

. هل هناك ونس أفضل من مقام سيدك منصور ؟

يعلو صوته فى حسم :

. كان لابد أن أعثر على شقة جديدة ..

ترامى . من النافذة . احتكاك فرامل بأرض الطريق ، أعقبه تداخل أصوات . أشاح محمود بيده :

. الحوادث فى طريق الكورنيش كثيرة ..

ألاحظ أنه لم يعد يتخلل شعر رأسه بأصابعه ، وإن لم تبدل السنوات فى ملامحه وهيئته : أخذ من أبى قامته الطويلة ، الممتلئة ، وفى التأكيد على الكلام بحركات اليد ، وفى القعدة والنهوض . حتى طريقة المشى أقرب إلى طريقة أبى . أخذ من أمى الملامح الوسيمة المنمنمة ، والعينين الخضراوين ، الصافيتين ، والبشرة الناعمة الرائقة ..

كان إذا سارا معاً ، لاحظ النظرات المتطلعة إلى محمود . يحرص على وسامته وأناقة ملبسه . يصنع فارقاً فى جنب رأسه ، ويراعى تهدل خصلة صغيرة على الجبهة ، يسدلها كأنها عفوية ، ولا يخفى زهوه بالحمرة التى تصبغ وجهه . يجد فيها اتساقاً مع لون العينين ، ويحرص على أن يكون الجورب فى لون القميص ، وكان ينعكس فى تصرفاته ما يبدو أنه ثقة بالنفس ، وربما إعجاباً بها . قال له فى

غضب مفتعل : أنا جوارك كومبارس !.. ثم وهو يضم أصابعه ويفتحها : شعاع عينيك يجتذب البنات !

أمسح المكان بعينين متأملتين :

. توقعت أن أجدك متزوجاً ..

يظهر الدهشة :

. لماذا ؟

. تزوج توفيق .. وفاطمة ..

. وفردوس ؟

. تابعت رفضها لفكرة الزواج من بداياتها ..

وفى لهجة تأكيد :

. هى التى رفضت ..

ثم وهو يغتصب ضحكة :

. اعتبرنى مثلها ..

أمضيا فترة الصباح على شاطئ سان ستيفانو . خلعت حذاءها ، وأعلنت أنها تحب ملامسة المياه بقدمها . شاطت الرمل المغموس فى مياه البحر ناحيته . كور قبضة رمل وقذفها بها . جرت ، وجرى . واصلا قذف الرمال . تألمت هنادى من حبة رمل تسللت إلى عينها . أخرج منديلاً من

جيبه . وضعه على عين هنادى ، وراح ينفخ . سرى خدر لذيذ فى جسدها . توقعت . وتمنت . أن يقبلها ، يحاول تقبيلها . ترفض وتقاوم . يرضخها ساعداه ، وشفتاه اللتان تتوق لتقبيلهما . مال بصدره ، فلامس صدرها . أغمضت عينيها ، ومدت بوزها . قال وهو ينثر الرمل من شعرها :

. ليس هنا ..

تردد على بيوت فى كامب شيزار والأزاريطة . يطلب المسامرة والتعرى ، ويرفض اللقاءات الجنسية . ضايقته امرأة فى شقة بشارع توفيق جلال ، أصرت أن يأخذ مقابلاً لما دفع . دس النقود فى يدها ، وكرر الرفض ..

قالت وهى تتصنع الحزن :

. الله الشافى !

أثارته العبارة . هوى بكفه على وجه المرأة . كور قبضته ولكمها فى وجهها . شجعه سقوطها على الأرض ، فارتمى فوقها . توالت ضرباته بآخر ما عنده . صاح ، وشتم ، وسب . لم يهدأ إلا بعد أن ارتخى ذراعا المرأة ، فتخلت عن محاولة دفعه . ألقى بالسويتر الجلدى على كتفه ، وجرى نحو الباب ..

أعتدل فى جلستى ، وأرنو إليه بنظرة متسائلة :

. كيف ماتوا ؟

أدار نحوى ملامح مندهشة :

. من هم ؟

. أبى وأمى وجمعة ؟

يتنهد :

. ماتوا من زمن ..

ويحدجنى بنظرة مستفهمة :

. قال توفيق إنه أخبرك فى كل مرة ..

. صحيح .. لكنه طالبنى بأن أظل حيث كنت ..

يرتعش فنجان الشاى فى يدى . أعيده إلى الطاولة :

. لم أكن أستطيع أن أترك عملى ..

وأعيد السؤال :

. كيف ماتوا ؟.. ميتة ربنا .. مرض .. حادثة ..

. صحونا ذات صباح على صراخ أمنا .. مات أبوك فى سريره ..

تداخلت فى صوتى بحة :

. لم يكن يتعاطى شيئاً ..

استعاد نظرته المتسائلة :

. من قال ؟.. هذا أجله ..

ومط صوته تعبيراً عن الحزن :

. عانى . فى أيامه الأخيرة . أوجاعاً غير محددة فى جسده ..

تناهى الصوات من النافذة المطلة على ضريح سيدى منصور . خمّن أبوه أن خناقة تدور أمام المقام . أطل . كانت امرأة ترفع صوتها أمام الضريح ، كأنها تشكوه ..

قال :

. الصوات شؤم ..

ونزع الجاكت عن جسده :

. لن أخرج !

كان يختار تفاؤله وتشاؤمه . يترامى صوت صفارة من الميناء الغربية . يتوقع صفارة تالية من باخرة ترد التحية . إن حدث ، فهو خير . وإن لم يحدث ، فهو نذير شؤم يدفعه إلى البقاء فى البيت . ربما عد درجات السلم إلى الطابق الأرضى . يأمل أن يكون الرقم الأخير زوجياً ، فتأتى النتائج الطيبة . يتباطأ فى نزول الدرجات الأخيرة ،

فلا يصدمه الرقم الفردى . وكان يتشاءم من سماع دق الخشب فى الصباح ، حتى لو فى مكان يبعد عن البيت . يلزم البيت إذا ترامى من الشارع صوت شجار . يتشاءم ، فينزع ملابسه ..

ألف التفاؤل والتشاؤم ، وتفسير التصرفات . يحرص على أن يصحو مبكراً ، ربما بعد الفجر بقليل . يهمه أن يفوز باليوم من أوله . يشترى الأراضى . الخرابات ، أو البيوت التى صدر الأمر بإزالتها ، أو التى اقتصرت على طابق أو طابقين . يشرف على عملية البناء ، منذ دق الأساسات ، حتى تعلو طوابقها . تسكن الأسرة فى أحد الطوابق ، ثم يبنى بيتاً جديداً ، تنتقل الأسرة إليه . يشترى الأرض ، ويبيع العمارات . تنتقل الأسرة بين العمارات . لا تستقر . إلا أعواماً قليلة . فى شقة واحدة ..

بدا مستعداً لفعل أى شىء حتى يوسع نشاطه . أضاف إلى بناء العمارات ، وبيعها ، عمليات تجارية ، يبيع فيها ويشترى . كل ما يساعد على تربية " الجرمق " على حد تعبيره . حتى البضائع المهربة من الجمارك أنهى فيها صفقات ، وبذل الوساطة ...

في موضعه على السرير ، أو أمام المكتب ، يتخيل هاشم اللحظات التالية حين يعلو صوت أبيه من داخل حجرته . يساير تخيله وقع أقدام الأم بين الحجرة والمطبخ . تضع طست الماء الدافئ أمام الكنبة الصغيرة وسط الحجرة . تتناغم تأوهات السعدني وتعليقاته المتكررة مع صوت اندلاق الماء في الكوز : يومى كله في الشوارع في مهنة بائرة .. يقتلني التعب ولا أحد يشعر .. أتعجل حصولهم على الشهادة الجامعية ، ويحرصون على الرسوب .. الإنسان ينجب رجالاً ليفيدوه في كبره ، لكن حظي سيء ..

لم يعد رمضان السعدني يشكو في أيامه الأخيرة ، وإن لاحظت الأم أنه يعاني ، في زمة الشفتين ، وتقلصات الوجه ، وارتعاشة الأهداب ، والآهة التي تنطلق بعفوية ، والتساند على الكراسي ، أو الجدران . داهمته نوبات نقلته إلى الماضي . لا يلحظ ما يحياه . يستعيد رؤى بعيدة . ثم امتنع عن تناول ما يقدم إليه . يغلق شفتيه حتى عن كوب الماء ، ويغمض عينيه ، ويهز رأسه ..

تبدو الفرصة مواتية لأسأل ما إذا كان لي في الميراث الذي تركه أبي . أسأل لألتقط طرف الخيط :

. تدير الآن أعمال أبى ؟

يلجأ إلى يديه فى التعبير عما يريد أن يقوله :

. لم يترك أعمالاً لأديرها .. فى أيامه الأخيرة لم ينزل إلى السوق ..

ثم وهو يشير إلى جهة غير مرئية :

. حتى عمارة شارع الميدان فاجأنا ببيعها ، لينفق على البيت ..

لم يشر أبوه إلى ظروفه المالية . تحدث . فى حجرة القعاد . عن عمليات البيع والشراء ، ومساحة التعامل بين التمليك والإيجار . تصرفاته المالية . وحدها . ظلت فى منطقة الظل ، وإن كتب . فى أزمة المرض . توكيلاً لمحمود . عرف به أن مجموع حساب أبيه فى بنك الإسكندرية . فرع العطارين ثلاثة آلاف وستمائة وسبعون جنيها ..

هل كان المرض . ومن قبله الظروف الاقتصادية القاسية . هو الذى أملى على أبى غضبه ، وصوته الراعد ، وملاحظاته العنيفة ؟

يقتحمنى شعور بأنى أحببت أبى ، وأنه كان طيباً . أجهدته مداراة الضعف الذى انطوت عليه نفسه ..

لم تكن سطوة الأب وحده هى ما يرفضه . لم يكن الصوت الراعد ، والعبارات الآمرة . عانى إحساس من يرتدى ثوباً ضيقاً ، فهو يريد أن ينزعه . يريد أن يكون ما يريد أن يكونه ، ما هو عليه ، وما يتطلع إليه . يرفض أن ينصت إلى غير صوت نفسه . كانت تضايقه حتى ملاحظات أمه أو أحد إخوته . يثيره مواء القط فى اصطدامه به على بسطة السلم . يكرر عجبه لقرار أبيه بالإقامة فى بيت يطل على مجاذيب يحيطون بالوهم فى غرفة خشبية ..

كان يريد ما لم يتبينه . يرفض ما هو قائم ، ويتطلع إلى ما لم تتأكد قسماته ولا ملامحه . تملكه ما يشبه العناد ..

استغل محمود ما لاسم السعدنى من سمعة فى عمليات البناء والشراء والبيع . تصرف كما لو أن رمضان السعدنى يدير العمليات بنفسه . بدّل ما كان يتبعه أبوه . اشترى قطع أرض . برهن بيت أحمد كشك . فى سموحة . تركها مسقعة ثلاثة أعوام ، ثم قسمها إلى ستة أجزاء ، باع أربع قطع بسعر أعلى من سعر الشراء . فك رهن البيت ، ودق

أساسات عمارتين من عشرة طوابق ، وإن بنى طابقاً واحداً . زادت طوابق البناية الأولى إلى أربعة ، بينما ظلت البناية التالية من طابقين . فى باله أن يبيع ، ويبنى ، إلى الطابق العاشر باكتمال تحمّل الأساسات ..

كان يدفعه إلى عمليات شراء الأراضى ، وبنائها ، وبيعها ، شعور أشبه بالتحدى ، بالمغامرة . لا يشغله العائد المادى قدر انشغاله بتحقيق ما لم يتبينه ، ولا حدد قسماته . أضاف إلى بيع البنايات الجديدة وساطة الشراء والبيع فى قطع الأراضى والعمارات والشقق والدكاكين . اقتصرت شقة أحمد كشك عليه . تركها بعد أن اشترى لنفسه الشقة المطلة على الميناء الشرقية . استهواه امتداد أفق المياه فى نصف الدائرة أمامه . فى باله عودة هاشم ، وأن شقة أحمد كشك للأسرة ، فأغلقها ..

وهو يحاول السيطرة على مشاعره :

. المرض لم يهمل أمنا .. تليف فى الكبد ظهرت أعراضه متأخرة ..

. كنت أتصور أنها أقوى من الموت نفسه ..

يتصاعد مد القلق فى داخلى :

. كيف أنفقتم على علاجها ؟

. ساعدنى توفيق ..

ثم وهو يهز رأسه :

. أعمل منذ التخرج فى مصر للسياحة .. ووفقت فى تحريك عمل أبى ..

وتفتر شفتاه عن بسمة باهتة :

. فى لحظات إفاقتها من الغيبوبة ، كانت تسأل عنك..

أحدس . من ارتعاشة ذقنه . أنه يغالب الانفعال :

. هل دخلت غيبوبة ؟

. أمضت الأشهر الثلاثة الأخيرة فى غيبوبة ، أفاقت منها فى أوقات متباعدة ..

ويخالط صوته تأثر :

. فقدت الكثير من وزنها .. وفقدت شعرها وأسنانها..

أهمس :

. أمى !

يقول فى صوته المتأثر :

. لم تعد فى أيامها الأخيرة قادرة على المشى ، ولا على الحركة ..

ويغمض عينيه :

. كان المرض قاسياً ..

كان يعود إلى البيت ، فيجدها فى انتظاره . لا تطيل البقاء فى حجرتها . لا ينتصف النهار حتى تكون قد أطلت على الأبناء فى حجراتهم ، أو على الحجرات الخالية ، وعلى الحمام . تترامى رائحة الطعام فى وقفتها . أمام الأوانى . داخل المطبخ . تتحدث إلى الجارات من بسطة السلم ، أو من النافذة المطلة على سيدى منصور . لا تدخل حجرتها إلا إذا قدمت العشاء لتوفيق ، آخر من يعود إلى البيت . يجلس مع أصدقائه فى مقهى سيد برغش . يتركها فى منتصف الليل ، أو بعده . اعتاد شراء هريسة من الطيبين ، ثم يتجه إلى شارع أحمد كشك . تغيظ محمود شكواها الدائمة من التعب والإرهاق وثقل العبء . تحاسبهم على ما لم يفعلوه . هى التى التذت بمضاجعة أبيه ، وبمشاعر سعت إليها فى الحمل والولادة ورعاية الأبناء . هذا اختيارها . لا هو ولا أخوته سعوا إلى ما حدث ، ولا شاركوا فيه . حتى كلمة ماما رددوها لأنها دربتهم على قولها . لم يكن يتدبر الكلمات . ما يفد إلى ذهنه يقوله ، لا يلحظ حتى إن كان قد سر من يحدثه

أم أغضبه . يتبين خطأ التعبير . أو قسوته . بمجرد أن ينطقه . يستطرد فى لهجة معتذرة . ربما تخلل استطراداته كلمات تغضب محدثه . يعاود الاستطراد بلهجته المعتذرة ، وهكذا . وربما وصل كلماته . فى انعكاسها على الملامح . باعتذار عن الصراحة التى هى من طبعه . ألف أخوته قسوة عباراته ، بعكس أبيه الذى وجد فيها قلة أدب ..

فاجأه توفيق بالقول :

. إذا تزوج الإنسان بعروس البحر .. من يشبه أبناؤهما ؟

قال محمود دون أن يفطن لما يقصده شقيقه :

. يشبهون أبويهما ماعدا الذيل .. يشبه ذيل الأم ..

قاطعه توفيق :

. وإن تكلما لغة الأب ، ولغة الأم أيضاً ..

أردف دون أن ينتظر إجابة :

. تكلم لغة والدينا ، واحرص على نظافة ذيلك ..

أنفض رأسى بتلقائية :

. وجمعة ؟

. مسكين !.. تصور نفسه ينظم المرور عند سراى رأس التين .. صدمته سيارة وجرت ..

ألف رؤية جمعة على الكنبة الإستانبولى لصق النافذة المطلة على المنور . يعلو صوته بالغناء . يدغم الكلمات التى يتذكرها فى دندنة تقلد اللحن . ثم ينادى اسماً يعرفه هو ، واحداً ممن يلتقى بهم . يغير الاسم فى كل عودة إلى البيت . يتجه بصراخه إلى الأم يطلب الطعام . ينسى الأمر . إن تأخرت . ويعود إلى الغناء . يتذكر ما لا يرويه ، فيطلق ضحكة متقطعة . وكان إذا ضحك اهتز جسده كله . ثم يوجه الشتائم والسباب إلى ناس . عبر النافذة . لا يراهم . ينادى أشخاصاً وهميين ، يشتمهم ، يتعارك معهم أو مع نفسه . يلجأ إلى يديه فى تأكيد المشاعر التى يريد التعبير عنها . الكلمات تتلاحق من فمه ، تختلط وتتشابك ، يضرب الأرض بقدميه ، ويصدر أصواتاً غير واضحة ، وينادى ، ويشتم ، بلا توقع للرد ، وإن ميز شتائم لم يتصور أن جمعة يمكن أن ينطقها . وكان خيط من الماء يجرى . أحياناً . على ساقيه أسفل جلبابه ، ويشكل بركة صغيرة ، يبتلعها الكليم الأسيوطى ..

هو الثانى فى الأبناء الذكور والإناث . ولد صباح يوم الجمعة . سماه رمضان السعدنى باسمه . لم يلمح السعدنى . فى طفولته . بما يشى بأحواله التالية . تكلمت الأم عن تأخر المشى ، وعن تأخر النطق . أرجع الأمر إلى لهفة فى طبعها . تحرك جمعة . بالمشى والكلام . فنسيا القلق ..

استعادت الأم قلقها بما لاحظته على جمعة : الشرود ، الجلوس . بالساعات . أمام كراريس المذاكرة ، لا يفتحها ، العودة من مدرسة راتب باشا بعد الحصة الأولى ، بلل الفراش ، الغناء والصراخ والبكاء ، بلا توقع ، وبلا مناسبة . كان الأب يربطه فى عمود السرير ، حتى لا يترك البيت . يشدّد فلا يقدم الأبناء على حل وثاقه . حتى الأم تقدم له الطعام وهو فى قيده ، وتبكى ..

تشابهت تصرفاته ، وتكررت . ترك المدرسة ، ولم يعد مطلوباً منه أى شئ . ينام ، ويصحو ، ويجلس ، وينزل إلى الطريق فى الأوقات التى تحلو له . كتم رمضان السعدنى ألمه ، واكتفت الأم . وهى تراقب نصرفاته . بالتماع الدمع فى عينيها ..

تناديه أمه باسمه : جمعة . يعيد الاسم فى تلذذ كأنه يكتشفه . يعلو به صوته ، ويمط الحروف ويلونها ، ويطلق ضحكته المتقطعة . إن أثر فيه الغضب ، حطم ما تصل إليه يده : كوباً ، أو قلة ، أو طبقاً . ترافق فعله صيحات مدغمة ..

بدا حزن الأم على جمعة أشد من حزنها على الزوج الراحل . مات رمضان السعدنى فى فراشه ، فى سن طبيعية . أما جمعة فقد مات شاباً ، دون أن يظفر فى حياته إلا باللقمة والهدمة . قتلته السيارة ، ومُزّق جسده فى المشرحة..

يزيح محمود خصلة الشعر من جبهته :

. من ساعدك فى تنظيف الشقة ؟

. لا أحد .. إنها خالية من الأثاث تقريباً كما تعلم ..

ثم وهو يحرك أصابعه :

. نفضت التراب عن ملاءة السرير الوحيد ، وتركت النافذة مفتوحة ..

. والصالة .. والحمام . وبقية البيت ؟

. عم أدهم .. هل تذكره ؟.. قدم لى فى اليوم التالى فتاة اسمها خيرية .. قال إنها كانت طفلة قبل أن أترك الإسكندرية ..

وأتأمل تقليبه للشاى فى الفنجان :

. اكتفيت بأن تنظف ما أحتاج إليه ..

وتتجه عيناى إلى أفق غير مرئى :

. ربما لجأت إليها . فيما بعد . لتنظف بقية الشقة..

اليوم الراب . . . . ع

أدفع ضلفة النافذة . تتحطم . بالصدأ . مفصلة الضلفة ، فأعيد إغلاق النافذة ..

يترامى صوت سعلة متقطعة لا أتبين مصدرها ، وصوت تلاوة آيات من القرآن ، أخمن أنه أحد الواقفين أمام ضريح سيدى منصور . ألفت ترامى أصوات متباينة من خصاص النافذة المغلق . راديو فتح على آخره ، نداءات ، نحنحة تنتهى ببصقة ، قرقعة عربة يد فى الطريق الترابى ، صيحات أولاد يلعبون البلى ، أصوات شجار وشتائم من الطوابق التحتية ، ومن الشارع أمام البيت . يقابلها . من ناحية مقام سيدى منصور . أصوات استغاثة وأدعية وابتهالات . الموضع . أمام المقام وحوله . يختلف طول العام عما يراه فى أيام المولد . يطل على المقام ، ويمر من أمامه ، فلا يلمح زواراً . تمر الساعات والموضع على هدوئه . ربما توقف مار . لحظات . يقرأ الفاتحة ، ويمضى ، أو تدس امرأة ورقة فى ثنايا النافذة الخشبية الصغيرة ، ولا تطيل الوقوف ، أو ترتفع زغرودة بتحقق نذر

، ثم يعود إلى مألوف هدوئه . يتبدل الحال فى أيام المولد . الزحام والحرص على ملامسة خشب الضريح الأخضر والدعوات والزغاريد وتضوع البخور . يشمل الصخب ما حول المقام . يمتد إلى الشوارع الجانبية ، وإلى شارعى صفر باشا وخلف السور .

ثمة شقة . لا أذكرها الآن . كان الصراخ يعلو فيها . يتبعه فتح باب واصطفاقه ، ووقع أقدام ملهوفة . ندرك أن الجارة . لا أذكر من هى ، ولا أين تقيم . تؤذى زوجها . ننظر من النافذة المطلة على شارع أحمد كشك . يمرق الرجل حافى القدمين ، ويرتدى ثيابه الداخلية . تجرى المرأة وراءه حافية القدمين كذلك . يميل ناحية مقام الولى ، يستغيث به . تخشى المرأة أذى الولى ، فتعود ..

يطالعنى عم أدهم . ظلت يده على الجرس حتى فتحت الباب . هو إذن يعرف أوقات بقائى فى الشقة . شعره المهوش الأبيض الفودين يبين من تحت الطاقية البيضاء . يرتدى جلباباً من الكستور المقلم ، ويدس قدميه فى مركوب ..

يرسم على شفتيه ابتسامة ود :

. تأخرت عن واجب يا سى هاشم ..

تصدمنى العبارة :

. واجب ؟

. طبعاً .. سيدك منصور ..

يلون صوته بما يضيف إلى التأثير الذى يتوقعه ، بتعبيرات يديه وعينيه ..

. ماله ؟

. بركته مطلوبة بعد سفرك الطويل ..

ويشى صوته بعصبية :

. عندما نسافر نبلغ الحكومة فى الذهاب والعودة ..

وفى لهجة آمرة :

. سأصحبك إلى المقام بعد قليل ..

تبينت الأم صوت جمعة يتناهى من الطريق . عندما لاحظت خلو الكنبة من أثر نومه عليها . أطلت من النافذة المطلة على مقام سيدى منصور . كان جمعة مستنداً إلى مقام الولى ، وأعلى جسده يهتز ، وصوته يعلو بأدعية لم تتبين كلماتها ..

رفع عينيه نحو ندائها ، ثم عاد إلى اهتزاز أعلى الصدر والدعوات المبهمة . رفض أن يصعد مع أحد إخوته . قال :

. سألزم جوار المقام لخدمة مولانا الشيخ ..

بدت الكلمات مغايرة لما اعتاد قوله . أين التقطها ؟

قال توفيق :

. هذه جذبة مؤقتة ..

هتف محمود :

. هل فكرت فى الفضيحة ؟!

صادقت الأم مقام الولى ، منذ انتقلت الأسرة إلى بيت أحمد كشك . حرصت على النزول إليه . تقرأ الفاتحة ، وتقدم زيارة الطعام ، أو البخور ، أو الشمع ..

قال توفيق :

. أن يظن به الناس الانجذاب أفضل من معاملتهم له كأبله ..

اتجهت الأم إلى زوجها بنظرة مستغيثة ..

ظل ساكناً فى جلسته على كنبة الصالة . بدا الأمر أكبر من احتماله ، أو قدرته على التعبير برأى ..

طارد الأولاد جمعة بالحجارة ، فاختبأ خلف مقام الولى . مد ولد يده ، فصرخ للسعة شمعة . تصايح الأولاد وهم يجرون : الولى .. الولى ..

أطل جمعة برأسه . تابع الأولاد فى جريهم الخائف . أيقن أن الولى حماه من الأذى . أزمع أن يظل بالقرب من مقامه ، لا يفارقه ..

روت الأم عن زيارة سيدى منصور لها فى المنام . تكلم عن رعايته لجمعة ، وحذرها من أن تؤذى ابنها بالقول أو الفعل . قال الولى : جمعة لم يعد منكم . إنه منى . صعد جمعة إلى الشقة فى مساء اليوم الرابع . أسلمت الأم نفسها لليأس من تخليه عن جلسته بجوار مقام الولى . أهملت صمت الأب ، واحتجاجات محمود ، وملاحظات توفيق . أهملت حتى النظرات المتخاذلة لهاشم والبنتين . ميزت وقع قدميه ، ففتحت الباب . بدا متثاقلاً فى وقفته ، كأنه يعانى ، ربما لطول قعوده بجوار المقام . شعره منكوش ، ينسدل على جبهته وقفاه ، واكتست بشرته . بتأثير الشمس . لوناً بنياً غامقاً . الكلمات تخرج من فمه مدغمة ، وغير واضحة ، وإن اعتادت الأم فهمها من تعبيرات الوجه واليدين ..

لم يعد الأولاد . منذ الأيام التى لزم فيها الضريح . إلى معاكسته أو أذيته . أضافوا إلى لسعة الشمعة ما ينتسب إلى الكرامات . يستند إلى المقام ، ويسير فى شوارع الحى ، فلا تواجهه سوى النظرات المشفقة ، والمتطلعة ، والتى تطلب البركة ..

تصدّى لكلبة مسعورة ، عقرت الكثيرين . تعالت الصرخات إشفاقاً ، لكنه رمق الكلبة فى عدوها نحوه بما أبطأ من جريها ، ثم سكنت أمامه . مسد بيده على ظهرها ، فهدأت تماماً ..

قال توفيق :

. كنا نخاف على جمعة أذية الناس .. نحن الآن فى حمايته ..

قالت الأم :

. طول عمره مبروك ..

خانت صوتها ، فتهدج . تمالكت نفسها وأردفت :

. هذا إنسان خلق للجنة ..

أصطنع ابتسامة :

. أرى أن ضريح سيدى منصور هو الوحيد الذى لم يتغير فى غيابى ..

الناس الذين خلّفتهم منذ ثمانية عشر عاماً ، فى رحلتى الأولى ، ومنذ عشرة أعوام ، قبل أن تنقطع زياراتى المتباعدة ، لم يعودوا هم . تغيرت السحن وما يصعب تحديده . حتى عم أدهم يبدو أقصر وأضأل مما أذكره . هل غير الزمن ملامح الوجه وتكوين الجسد ؟

يظهر عم أدهم التأثر :

. الناس يبدلون كسوة الضريح كل عام ..

أدرك أن الرجل لم يفطن إلى معنى الكلمات ..

البيت فى إسماعيل صبرى يطل على الشارع العمومى والدكاكين والمقاهى ونداءات الباعة . البيت فى أحمد كشك يفصل بينه وبين الخرابة المقابلة طريق ترابى صغير ، ويطل من جانب على ضريح الولى ..

لا أحد يدرى أصل الشيخ منصور ، ولا لماذا دفن فى هذا المكان ، إن كان قد دفن أصلاً ، وما هى كراماته ومكاشفاته ..

روى أنه قدم إلى الحى منذ سنوات بعيدة ، لاذ . فى البداية . بأضرحة أولياء الحى ، يتنقل بين أبو العباس والبوصيرى وياقوت العرش ونصر الدين وعلى تمراز ، يجعل نفسه ضيفاً على التجار وأصحاب الوكالات ، يشارك فى الموالد وحلقات الذكر وخيام الطرق الصوفية ، ولم يكن يفوته السعى وراء جنازة تمضى أمامه . حتى لو لم يكن له معرفة بالميت أو أهله . يرافقه حتى القبر ، ويلقنه الردود التى يجب أن يقولها لأسئلة الملكين . ثم اختار لنفسه زاوية فى تشابكات الشوارع والحوارى والأزقة بين صفر باشا ورأس التين ، يهمس صوته ويعلو بآيات القرآن ، وبالأدعية والمقامات والأذكار . له قراءاته التى تطرد الأرواح الشريرة ، وتقى من المرض والكوارث . ربما يصنع الأحجبة للغائب حتى يعود ، وللمريض حتى يشفى ، وللعاقر حتى تحمل ، وللعروسين حتى تهنأ حياتهما ، ويهبهما الله الذرية الصالحة . لم يتكلف فى حياته أن يأتى بما يعتبره الناس من الخوارق والبركات . كان يفعل فعلهم ، ويحيا الحياة نفسها التى اعتادوها . طهر نفسه من الجبروت والكبرياء والخيلاء والعجب ، فهو لا يرى نفسه فوق أحد ، ويتخلق بوصف الذل

والانكسار . لم يزعم الطير فى الهواء ، ولا المشى على وجه البحر ، ولا طى الأرض ، ولا الرجم بالغيب . ولم ينشغل بأعمال التعويذ والسحر ، وإيلاف القلوب وفراقها . نفى ما رواه حمامة الجرسون بمقهى سيد غوايش عن رؤيته له وهو يلقى سجادة فوق المياه ، قبالة شارع صفر باشا ، ويؤدى فوقها الصلاة . قال إن الكرامات والمكاشفات من فعل أولياء الله ، بها يتميزون عن بقية خلق الله . ورفض الدعاء بأنه يمتلك قدرة التشفع عند الله ، أو صنع المعجزات ، وإن قيل إن القطب الأكبر أبو الحسن الشاذلى زاره فى المنام . وضع فمه فى فم الشيخ . أودع فى داخله السر والمكاشفات والبركات التى فاءت بتجلياتها على طالبى النصفة والمدد ..

بدا مفتوناً بسبر غور الأشياء والكائنات . يسأل ، ويناقش ، ويتأمل . ظلت روحه سارحة فى الملأ الأعلى من قبل أن يشمله الله برحمته . أمضى فترة الاستعداد الاصطفائى لمقام الولاية : المشاهدة والجلال والجمال والأنس والهيبة والبسط . تأدب بآداب الأنبياء والصديقين والأولياء . انقطع من الدنيا ، وأقبل على الآخرة . يقضى

أياماً لا تنقطع فى المجاهدات ، والاتصال بالملأ الأعلى ، لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . تغترف روحه من بحار فيض ربها . عزل قلبه عن التعلق بأحد من البشر ، لا يشغله إلا التعلق بالله ، وبالمعانى اللطيفة ، والسر الرائق ..

ظهر سلطان الأنوار بعد طول اختفاء ، وانجلت الظلمات ، وارتفعت الحجب . عرف حقيقة نفسه كما عرف حقيقة أنفسهم أكابر فعل الذوق . نطق بالعلوم ، وعبر عن المواجيد ، ونشر المقامات . انكشفت ذخائره ، واتسع مدده ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويمتلك القدرة على تبديل نفسه والآخرين والأشياء . توافد عليه المريدون ، وطالبو النصفة والمدد . تهمس أصواتهم ، وتعلو ، بالتسابيح والتهدجات والأدعية . لم يكن يأخذ من الناس أجراً . السماء تعطيه طعامه وشرابه وترددات أنفاسه . وكان يخدم مريديه بنفسه ، ويقوم على حوائجه ومصالحه ..

حين شعر بدنو أجله ، طلب من الجالسين فى مقهى سيد غوايش أن يقام له قبر فى الطريق الترابى الصاعد إلى رأس التين . لما شيدت البنايات فى المنطقة ، ظل الضريح فى مكانه ، وأقيم فوقه مقام ، وقصده الزائرون . يتوسلون

النصفة والكيد للأعداء وشفاء المرضى وعودة الغائبين والشفاعة والمدد ..

لضيق المكان ، اكتفى الأتباع بضرب خيمة وحيدة ، وتناثرت سواتر من البطاطين والملاءات على أوتاد خشبية ..

تستعيد الوقفة زيارات المريدين والنسوة والنذور ، وطالبى البرء والنصفة والمدد . الدعوات والابتهالات ، والتحدث مع ساكن الضريح كأنه حى . الزغاريد تعلو فى أى وقت لقضاء نذر . دس الرسائل وقطع القماش والأحجبة . حلقات الذكر تلتم فى دائرة تسد تقاطعات الطرق . ما يرافق المولد من نشر الأعلام والأشاير والرايات الملونة والتمائم ، وتعليق اللمبات الكهربائية والكلوبات . الخيمة الصغيرة فى الممر الجانبى ، ينفذ منها المارة بالكاد إلى شارع صفر باشا . نصبة الشاى لصق الخرابة المواجهة للبيت . بائع قصص الأنبياء وكرامات الأولياء ومكاشفاتهم . البخور والصندل والعنبر والأعشاب الطبية والشمع والدفوف وأوانى الأرز واللحم والفول النابت ..

تغيب الكلمات ، فلا أجد ما يهمس . أو يعلو به . صوتى . هل أخاطب من أتصوره حياً ، أو أكتفى بالدعاء ؟ وهل أضع يدى إلى جانبىّ ، أو أرفعهما فى هيئة التضرع ؟ وهل أحرص على لمس الكسوة الخضراء ؟..

يرمقنى بنظرة محرضة :

ـ كلم سيدك منصور ..

أرتبك بالحيرة :

ـ ماذا أقول ؟

ـ أخبره بوصولك .. اطلب عونه وإرشاده ..

أرمقه بالنظرة المتحيرة ، وأظل ساكناً ..

وهو يتأمل وقع كلماته على ملامحى :

ـ أولياء الله يروننا فى قبورهم ، ويستمعون إلينا ، ويلبون ما نطلبه ..

ويشى صوته بما يشبه الصراخ :

ـ كلم سيدك منصور . قل له : لماذا سافرت ؟ ولماذا عدت ؟

أتظاهر بالكلام . أكرر فتح فمى وإغلاقه . ليس فى بالى إلا أن تنتهى الوقفة ..

عم أدهم يغمض عينيه . يهتز ، يتمتم بما لا أتبينه . يغيب عن كل ما حوله . هو فى جزيرة يراها ، ولا أراها ..

اليـ ـوم الخامس

أترك المفتاح لخيرية . فى نيتى أن أقضى اليوم بعيداً عن البيت . ثمة دنيا فى داخل البيت ، وخارجه . عدت إلى شارع أحمد كشك ، لكننى لم أعد إليها ..

أعانى السؤال : كيف ؟

أطلب . وأنا أدس فى يدها عشرة جنيهات ، أن تعنى بكنس الأرض ، وتنظيف زجاج النوافذ والثلاجة والبوتاجاز ، ونفض الغبار عن الأثاث القليل الذى ظل فى الشقة . ربما زرت فاطمة . لم أزرها ، ولا زرت توفيق ولم أخبر أحداً بموعد عودتى إلى الإسكندرية . مهم أن أرتب حياتى قبل أن أجاوز اتصال التليفون إلى الزيارة الشخصية . ربما أبلغهما محمود بعودتى إلى الإسكندرية ، وربما أبلغ فردوس التى تحيا فى بيت توفيق ..

تفاجئنى بالقول :

. هل تترك نقوداً لنعد لك طعاماً ؟

هذا هو اليوم الخامس . أكتفى بساندويتشات من المطاعم التى أمر عليها . مجرد مسح زور كما كان أبى يصف الوجبات خارج البيت . لا يرد البائع خمسة وعشرين قرشاً . كنت أشترى ساندوتش الفول والطعمية بثلاثة قروش . أدرك أن أعوام الغربة فصلتنى عن زمن مختلف . أتقبل الزيادة . وإن كتمت الدهشة . بأضعاف ما كانت عليه ، فى الطعام والجريدة وأجرة التاكسى ..

أشيح بيدى :

. بعدين ..

تضحك بحيث تجتذب اهتمامى :

. أحب أن تأكل من يدى ..

ماذا تقصد البنت ؟..

أعيد تأمل القامة القصيرة ، وخصلة الشعر المتهدلة على جبهتها كثعبان صغير ، والعينين المكحولتين ، والشفتين الممتلئتين ، يعلوهما أنف أفطس ، والبلوزة الصفراء المكشوفة الصدر ، والجونلة البنفسجية ، المتسخة ، تعلو الركبة ، والشبشب البلاستيك ..

أبطأت نطق الكلمة :

. بعدين ..

تتاهى صوت أنثوى ، يردد أغنية عبد الوهاب : بافكر فى اللى ناسينى .. وأنسى اللى فاكرنى ..

أحدس أن الصوت من نافذة فى الطوابق التحتية . ربما . لوضوح الصوت . فى الطابق الذى يليه . أذكر أن الشقة تسكن فيها أسرة لها ولد وطفلتان . هل كبرت الفتاتان ، وهذا صوت إحداهما ؟

أطيل النظر إلى حجرة أبى . تطل مباشرة على مقام سيدى منصور . تتصاعد إلى داخلها أصوات الواقفين حول المقام ، وأصوات الدعوات والابتهالات والزغاريد . خلت من الأثاث تماماً ، ماعدا نتيجة حائط بلا أوراق توسطت الجدار . كان يميزها السرير النحاسى ذى الأعمدة ، والأريكة المستطيلة تعتز أمى بأنها ضمن جهازها . تسميها كنبة الدلع . أطعمها أبى الفاكهة . فى ليلة الدخلة . وهما يجلسان فوقها . وإلى ركن الجدار تقف السجادة الفارسى ، رفض أبى أن تفرد على الأرض حتى لا تتهرأ ، أو تتسخ . ظلت فى موضعها حتى تركت الإسكندرية . لعلها الآن فى بيت محمود أو توفيق ، وربما حصلت عليها فاطمة لبيتها .

بقى دولاب امتد بعرض الحائط ، لم يحكم إغلاق ضلفه ، وبوفيه غطى التراب ما دس تحت زجاجه من صور .

أتصور أبى واقفاً على باب الحجرة ، بقامته الفارعة ، الأقرب إلى الامتلاء ، ووجهه الأبيض المشرب بحمرة ، من عمله . لساعات طويلة . تحت الشمس ، وصوته الراعد ، والعينين البنيتين ، على يمناهما سحابة تغطى الحدقة . يكثر من رفع إصبعه ليعيد النظارة المنزلقة على الأنف إلى موضعها ، وإن أربك محدثه بنظرته المحدقة ..

ألف مشادات أمه وأبيه . يثق أن حب كل منهما للآخر يذوى الخلافات ، فتظل عابرة . يتخاصمان ، فتمر أيام دون أن يتبادلا كلمة واحدة . يترقب الأبناء تصرف توفيق الذى يدخل الشقة ويغادرها ، فلا يبدو أن الأمر يشغله . قد يسهل عليه التأثير فى أمه ، لكن الصعوبة فى مناقشة أبيه أو معارضته . فى لحظة يختارها ، أو يختارها الهدوء الذى يسم ملامح الأبوين . يلقى دعابة ، أو نكتة . يتجهم وجه أبيه بالغضب ، وتظهر الأم خجلها . يهمل رد الفعل ، ويواصل دعاباته ونكاته ، فينتزع الضحكات . ضحكات الأب . دائماً . هى الأسبق . تكتم الأم ضحكتها . تزم شفتيها ، فتصدر

الأم ضحكة . متقطعة . من أنفها . يغمز بعينه فى اتجاههما ، وهو يغلق باب الحجرة :

. أترك العروس لعريسها ..

فاجأ الجميع ، حين قذف بكتب الدراسة فى الخرابة المقابلة ، وقال :

. هذه هى نهاية رحلتى مع التعليم ..

ران عليهم صمت المفاجأة ..

قال الأب :

. خيراً ما تفعل .. حصلت على الثانوية العامة فى العشرين .. يادوب تتخرج فى الجامعة على المعاش ..

قالت فردوس متخابثة :

. هاشم يفضل القراءة الحرة ..

فوت الملاحظة . التوقع الذى ينتظره من أمه وأبيه ، من أبيه بالتحديد . كانت القراءة والتأملات تأخذه من كتب الدراسة . يجهد ذهنه حتى يستوعب ما يقرأه . يهز رأسه لملاحظة محمود : لو أنك أخلصت للمذاكرة قدر إخلاصك لقراءة الروايات !..

قالت الأم :

ـ هل تنوى البقاء فى البيت ؟

قفز ـ فى مجازفة محسوبة ـ فوق الأسلاك الشائكة :

ـ سأعمل مع أبى ..

اربد وجه رمضان السعدنى :

ـ هل أخبرتك أنى أريدك معى ؟

وتنهد فى مرارة واضحة :

ـ هذه مهنة تعتمد على رزق الصدفة وليس على راتب أول كل شهر ..

فاجأه العرض بعد أن قدمه ، مثلما فاجأ أباه . رافق رمضان السعدنى فى التردد على مكاتب المهندسين ، وفى عمليات البيع والشراء ، وفى الإشراف على العمال والفواعلية أمام البنايات التى يتم إنشاؤها . يتابع ، وإن لا يعطى انتباهه . وجد أن أباه أشركه فى عمله ، لما تردد على شقق البنايات الحديثة ـ قبل أن يتم بيعها ـ لتحصيل الإيجارات ..

قال توفيق :

ـ كنت على ثقة أنك الوحيد بيننا الذى سيمضى فى مشوار التعليم حتى الدكتوراه ..

وبدأ فى العد بأصابعه :

. قراءاتك الكثيرة و ..

قاطعه :

. لا شأن لذلك بمستقبلى ..

وغالب الارتباك برفع صوته :

. أريد أن أكون حراً ..

صرخ رمضان السعدنى :

. صايع !..

لم يجاوز هدوءه :

. أريد أن أكون مسئولاً عن نفسى ..

. فليكن هذا خارج البيت ..

. هذه ليست مشكلة .. ربما تركت الإسكندرية كلها قبل شهر ..

اتجه إليه بنظرة مشتعلة :

. من قال إنى أوافق على سفرك ؟

. دبرت كل شىء .. لا أنتظر موافقة أحد ..

وهمس من بين أسنانه :

. سأركب البحر ولا أعود ..

كان يحلم بأن يمضى إلى محطة الركاب البحرية . يستقل الباخرة ، يسافر ، ويشاهد العالم . يناوشه الحنين والشوق الغامض إلى شيء لا يتبينه . شيء يفوق ما يحياه بالفعل . يبدد شعوره بعدم الرضا . وعابت عليه فردوس أنه يكتفى بالرفض ، وإظهار الغضب ..

فى لحظة . لا يذكر مقدماتها ولا بواعثها . اختلط فى ذهنه معنى الرحلة : هل يركب البحر فراراً من سطوة أبيه ، أو للبحث عما يثق أنه لن يجده فى مصر ؟

قال ناجى قشطة :

. تريد العمل فى البحر ولا تشرب ؟

. هل الشرب هو الخمر وحدها ؟.. أنا أحب الشاى !

. ضف إليه الحليب واذهب إلى السرير مبكراً ..

لم يقتصر ناجى على لون محدد من الخمر . تكلم عن الويسكى والبراندى والكونياك . سأل هاشم توفيق عن الطافيا . هتف توفيق بالدهشة :

. أين سمعت عنها ؟

. ناجى . قال إنه يشربها ..

. جن الرجل !. إنها سبرتو يفرى الكبد !

أخلى لقدميه سبيلهما فى بيريه ، ترافق خطواته نظرات تحاول التعرف والاكتشاف والتأمل . المشاهد . فيما عدا الجبال والجزر المتناثرة فى أفق البحر . مشابهة لما كان يراه فى الإسكندرية . قال لنفسه : بيريه مثل بحرى ، تحيا على البحر . الشوارع والأزقة والأسواق ، والدكاكين المتقابلة تكاد تتماس الفاترينات المصفوفة خارجها . وهو يعبر الميدان الصغير إلى ما بدا أنه سوق للخضار ، لفت انتباهه إلى الدكان وفرة ما كان يبيعه . أشبه بمحال سوق الخيط أو زنقة الستات . ألوان من المشغولات الذهبية والفضية والأقراط والإيشاربات والأمشاط والمناديل وأدوات التجميل ..

أطال تأمل المعروضات ، مدفوعاً بالتوقع أنه ربما وجد ما يقتنيه لفاطمة وفردوس ، وللطيفة ..

قال العجوز اليونانى :

. لكل شئ ثمنه .. أرنى اختيارك أحدد لك السعر ..

استراح إلى الطيبة فى ملامح الرجل . فى السبعين ، أو تجاوزها . تناثر النمش على وجهه وعنقه ، وأحاطت التجاعيد بعينيه وجانبى فمه . له حاجبان مقرونان ، وأنف

كبير أقنى ، يعلو شارباً كثيفاً ، وابتسامة طفولية صافية ، وثمة بقع بنية على ظهر كفه ، ويعانى ارتعاشة خفيفة فى يده اليسرى . يضع على رأسه كاسكيت ، ويرتدى فانلة بيضاء بكمين طويلين ، وبنطلوناً قصيراً يبلغ الركبة ، وصندلاً متقاطع السيور ..

لا يذكر لماذا تكلم مع نفسه بالعربية . لكن العجوز تنبه إلى الكلمات ..

سأله بالعامية :

. هل أنت مصرى ؟

أدهشته المفاجأة فى عبارة الرجل ، وإن ألف الكلام بالعربية ، باللهجة المصرية ، فى المقاهى والدكاكين ووسائل المواصلات . يونانيون عادوا بالذكريات والمال واللغة الأخرى ..

. من الإسكندرية ..

. ولدت بالعطارين فى أيام سعد باشا ، وتركتها فى أيام عبد الناصر ..

تردد فى السؤال :

. هل ؟..

قاطعه العجوز :

. لا .. عدت بإرادتى .. كانت الظروف قد تغيرت ..

اعتاد التردد . فى كل زيارة لبيريه . على دكان ميخاليدس . يسأل العجوز عن أماكن وشخصيات . يجيب بقدر ما يعرف . الإبراهيمية وكامب شيزار وسان ستيفانو وأنطونيادس وعلى كيفك والعطارين وسينما الهمبرا والأزاريطة ومقهى البلياردو . أظهر جهله بأسماء حميدو فارس وأبو خطوة والنجرو والسكران ..

قال العجوز وهو يطلق ضحكة متقطعة :

. هؤلاء هم فتوات الإسكندرية فيما بين الحربين .. لا يذكرهم إلا الشيوخ من أمثالى ..

ومسد شاربه :

. لو سألت أباك ستعرف أن أشهرهم من بحرى ، حيث تعيش ..

اغتصب ابتسامة :

. أبى يحدثنى عن الطيبين لا الأشرار ..

أظهر ميخاليدس انزعاجه . قال وهو يوسط الهواء بإصبعه :

. لا .. لم يكونوا أشراراً .. كانوا فتوات بحق وحقيق

، وينتصرون للمظلوم ..

اليوم السادس

خيرية تدخل وتخرج . خيرية تنظف ، وتعيد الترتيب . ربما لا تفطن إلى قيمة جواز السفر . أفتح درج المكتب لأضع الجواز . يبدو الدرج خالياً ، ما عدا ورقة مطوية استقرت فى نهايته . ألتقطها . أوراق الأسئلة فى امتحان النقل بمدرسة رأس التين الثانوية . ما كتبته على الهوامش يشى بأن خطى لم يتحسن . لعله الآن أسوأ ، ربما لأنى لم أكتب بالعربية . فى السنوات الثمانى عشرة الأخيرة الفائتة . إلا رسائلى المتباعدة إلى توفيق ..

وهو فى دورة مياه المدرسة ، تناهى صراخ مكتوم باسم فردوس . كانت تقدم الشاى وهو يذاكر مع الولد فتحى عنانى حجرته . ربما ناوشتهم بكلمات . شعرها الأسود ، الناعم ، الطويل ، يتطاير مع حركة رأسها السريعة ، وتركت خصلات منه تتسدل على صدغيها . أردافها كبيرة بالنسبة إلى قوامها . وجهها منمنم التقاطيع ، يتباين مع العينين البنيتين ، الواسعتين ، تطلان بالدهشة على كل ما حولهما ، وتظللهما رموش طويلة . فى وجنتيها غمازتان

تبتسمان مع ابتسامتها الدائمة ، وتتكلم ، وتتصرف ، ببراءة وتلقائية . يثق هاشم أنها لا ترى أبعد من اللحظة التى تحياها . لا تعرف القلق ، ولا يشغلها التفكير فى الآتى . أدرك أن فتحى عنانى يمارس العادة السرية على صورة جسدها ، من وراء الباب المغلق . فتحت له فردوس باب الشقة . رماها بنظرة اتهام قبل أن تفسح له الطريق :

. لا تدخلى على زملائى بالشاى ..

. ماذا تقصد ؟

أعاد القول :

. لا تدخلى على زملائى بالشاى .. انقرى على الباب واعطنى الصينية ..

وهى تعطيه ظهرها ، وتتجه إلى الداخل :

. أفضل أن تطلب ما تريده من أمى ..

قال رمضان السعدنى فى جلسة حجرة القعاد :

. بدر الشايب التاجر بسوق راتب طلب يد فردوس ..

ثم وهو يحدد نظرته فى الأم :

. طلب أن نحدد المهر ومؤخر الصداق ..

قالت الأم :

. يا هناها لو أصبح من بختها ..

قالت فردوس :

. من قال إنى موافقة ؟

وأشاحت بوجهها :

. أرفض أن أكون فرسة يمتطيها من يدفع أكثر ..

لوى الأب بوزه ، وترك الحجرة ..

آخر ما كانت تتصوره أن يختار لها أبوها من تتزوجه . هى تختلف عن فاطمة . فاطمة توافق دائماً ، تشترى دماغها ، لا تسأل ، ولا تناقش ، ولا تعترض . وافقت على كتم إرادتها منذ وافقت على الاكتفاء بالإعدادية ..

قالت الأم :

. عيب يا بنت ! .. من أين لك هذه الكلمات ؟!

قالت فردوس :

. أنا لن أتزوج مجرد رجل .. إنه أب لأولادى ..

مصمصت الأم :

. أولادك ؟!.. تزوجى أولاً !

. لكى أنجب أبناء يجب أن أتزوج .. ولكى أتزوج يجب أن أحسن الاختيار ..

ثم وهى تهز إصبعها :

. أى واحد لا !

وضربت الأرض بقدمها :

. أنا لا أريد من يمتلك المال .. أريد من أحبه ..

اشتعلت عينا الأم بالغضب :

. تكلمينني عن الحب ؟!

قال محمود :

. من حقها أن تحب ..

صرخت الأم :

. كسر حُقّك .. هذا كلام لا تعرفه بناتى ..

أدرك أنه قد أصبح فى صدرها ما تحرص عليه ، وتخفيه ..

لعلها تحب ..

هاشم يسميها الفراشة . الفراشة تقذف نفسها فى النار ، والبنت تلقى نفسها . بتلقائية . أمام السيارات العابرة . تعيب تصرفها ، ولا تدرى بواعثه . يتوقع التصرف فيحرص أن يكون سيرها إلى جانب الرصيف ..

يوسف صديق هو الوحيد الذى لم يستعد نظرته إليها . يرسل نظرة كالومضة . ثم تتجه عيناه إلى ما بين يديه ، أو إلى الناحية الأخرى . تمنت لو أنه تقدم إليها : القامة الفارعة ، والعينان النفاذتان ، والبشرة السمراء ، والجلسة الهادئة ، المتأملة ، أو أنه يقرأ الجريدة . لا يلعب الكوتشينة ، ولا يتعاطى الجوزة ، حتى السيجارة لم تلمحها بين شفتيه . لامت نفسها حين اقتحمت أفكارها مشاهد حسية . يقبلها وتقبله . يفعلان ما لا تعرفه ، وإن تصورت نفسها بين ذراعيه يفعلان ما تخيلته ، وإن لم تعرفه . وتخيلته عارياً ..

اعتادت إطراءات الشبان ومداعباتهم ، وهى تمضى فى شوارع بحرى وحواريه وأمام المقاهى . تجد فيها باعثا للنشوة ، وإن رافق صرختها الصفعة التى هوت بها على وجه الشاب الذى لم يكتف بعبارات الغزل ، فمد يده . تضايقها التعبيرات التى تتحدث عن مواضع فى جسدها ، أو تدعو إلى العناق بين جسدين . تتمنى كلمات مثل التى كانت أمها تكتبها لأبيها فى رسائل أيام الخطبة . رسائل ملونة . فى رأسها ورود مطبوعة ، أو ترسمها بنفسها ، والكلمات مغسولة بقطر الندى ..

غالبت ترددها قبل أن تسأل هاشم :

. صديقك يوسف صديق .. لماذا لم يعد يزورك ؟

أظهر الدهشة :

. لماذا تسألين ؟

. أبداً .. كنت أمر أمام قهوة سيد غوايش .. تذكرت أنه لم يزرك من زمن ..

. ظروفه قاسية .. دخل فى زيجة ثانية ، فواجهه أهل الأولى بما لم يتوقعه ..

. هل هو متزوج ؟

. وله ولد ..

استكانت لغياب يوسف صديق من أفق حياتها . لم ترسم فى خيالها رجلاً محدداً ، وإن انشغلت بإعداد نفسها للبيت المستقل . صفت . فوق الدولاب ، وتحت السرير . حقائب وصناديق ، تحتفظ فيها بما تشتريه : أدوات مطبخ ، أقمشة ستائر ، ملاءات ، مفارش ، ملابس داخلية ، مناشف ، سجاجيد صغيرة .. تشترى ما يستهويها فى صفية زغلول أو سعد زغلول . تضيف ما يهديه إليها أخوتها . حتى فاطمة كانت تشترى ما يروق لها بعينى فردوس ..

الحزن يداهمنى وأنا أقف أمام بيت شارع إسماعيل صبرى . أنظر إلى شقة لطيفة فى الطابق الثانى . أين هى الآن ؟

أتنبه إلى أن لطيفة ظلت فى ذاكرتى . لم تطمس الأعوام ما كنت قد تصورت نسيانه . مجرد وقوفى أسفل البيت ، تطلعى إلى النوافذ المغلقة ، أعاد ما غيّبه ركوب البحر ، واتصال القلق بالاستقرار فى بيريه ..

أحس بنهديها يرتجفان فى صدره ، كأنهما قد اندسا داخله ..

. قلبى يحدثنى أنك لن تعود ..

رفت على شفتيه ابتسامة مشفقة :

. هل أموت ؟

. بل تستهويك الحياة فى الغربة فلا تعود ..

. إن حدث فسآتى لأصحبك معى ..

. والشقراوات ذوات العيون الزرق ..

وهو يمسح على شعرها براحة مترفقة :

. أحب السمراء ذات العينين البنيتين ..

كان يختار وقت الضحى لنزوله من الشقة . يصطنع لقدميه وقعاً ، تدرك . من خلاله . أنه هو . تطل من الشراعة ، أو تفتح الباب . تتظاهر بالمناداة على البواب ، أو تأخذ وعاء القمامة . تكتفى بنظرة تحمّلها إيماءة ، وترقب رد الفعل . طرف خيط تأمل أن يلتقطه . كانا يلعبان على السلم ، وأمام البيت ، وفى الشارع الخلفى ، دون أن تشغلهما مشكلات من أى نوع . نبههما البلوغ إلى ما لم يكونا قد فطنا إليه . اقتصر خروجها من الشقة على الذهاب إلى المدرسة ، إذا التقيا فى مدخل البيت ، أو على السلم ، أو أمام الشقة . غابت العفوية ، وحل ارتباك . تقتصر محاولة اجتذابه على النظرة الداعية ، ويكتفى بالتحية المدغمة . حتى شقيقها حسن ، لم تعد علاقته به كما كانت . غلب عليها . من ناحيته . الارتباك والحرج ، واطمأن إلى حائط غير مرئى يفصل بينهما ..

لقاء المصادفة فى تقاطع شارعى إسماعيل صبرى والميدان جعل علاقتهما فى موضع المصارحة . لا يذكر من بدأ الحديث ، ولا كيف ، وإن غاب . فى الأيام التالية . حرصه على الإيقاع المحدد لقدميه ، ووقوفها خلف الشراعة

، أو على باب الشقة . التقيا فى مواعيد ذهابها إلى المدرسة ، وعودتها . يلمح شعورها بالحرج . يدارى الشعور نفسه . فى سيرها إلى جانبه بالمريلة الزرقاء ، والجديلتين المضفورتين ، والحذاء ذى الجورب الأبيض ، والحقيبة الجلدية ، المفتوحة ، تسندها على ساعديها وصدرها . عرفا التمشى فى دحديرة أبو العباس ، وعلى شاطئ الكورنيش ، وفى حديقة سعد زغلول . تكلما وتكلما . بدت له أكبر من سنها ، وجاوزت نظرتها له حد الاكتفاء بالصداقة ، فتصورته زوجاً . لم تتأثر علاقتهما بانتقال أسرته إلى شارع أحمد كشك . كانا قد حددا أماكن لقاءاتهما ، ومواعيد اللقاءات ..

كانت تجتذبنى . فيما بين شقتى الطابق الأول . شرفة صغيرة تطل على الشارع . هيئتها مثل المثلث فى مساحة لا تزيد عن متر مربع . تمنيت أن أصل إليها بوسيلة ما ، فأجلس فيها . لماذا ؟ وإلى متى ؟ . لم أناقش الأمر ، وإن ظلت الرغبة تناوشنى كلما نظرت إلى الشرفة الصغيرة التى بلا شقة تنفذ إليها ..

أدور حول البيت . أتطلع إلى نوافذه وشرفاته . نوافذ الطابق الثانى وشرفاته على وجه التحديد . إطلالة البيت من ثلاثة مواضع . لا أعرف أين هى لطيفة فى أحدها ، ولا أين أتوقع نظرتها التى لا تتوقعها . لن تزيد عن ومضة يجب أن ألتقطها . ربما تغيب الوقفة عن واجهة البيت فى شارع إسماعيل صبرى ، وعن الجانب المطل على امتداد الأفق ، إلى شارع محمد كريم والكورنيش والميناء الشرقية . مناشر الغسيل فى الشارع الخلفى ، تعد بلحظات . لابد أن تأتى . لاستعمالها ..

حتى لا أثير الشكوك ، أطيل الوقوف فى أول شارع الأباصيرى . تظل الشرفة مغلقة ، والمناشر خالية . أتجه . متباطئاً . ناحية شارع فرنسا ، التفت بجانب عينى ، ثم بوجهى كله ، حتى يغيب البيت فى انحناءة الشارع ..

أصعد بعينى إلى شقة الطابق الثالث . شهدت طفولتى وصباى . ثمة غرباء يحيون فيها الآن . يتنقلون بين الغرف . يأكلون ، وينامون ، ويطلون من الشرفات والنوافذ على سيدى على تمراز وميدان الخمس فوانيس وشارع رأس التين وشارع إسماعيل صبرى وبداية شارع فرنسا . يتأملون

الميناء الشرقية ، وصيد المياس ساعات العصر . أتمنى لو أن كل شئ عاد إلى الزمن القديم . تخلو الشقة من ساكنيها ، وتعود لى . أصل الزمن الخالى ، الجميل ، بزمن أحياه .. لكن ما فات مات كما يقول المثل ، والأمنية تظل فى إطارها لا تجاوزه ..

حين دفع الباب الموارب ، علا الصرير ، وإن لم ينتزع أبيه من استغراقه فى قراءة الجريدة ..

. خلت شقة فى بيت إسماعيل صبرى ..

. أعرف ..

. أريد أن أفتح بها مشروعاً ..

لن يفلت فرصة الإقامة فى بيت لطيفة . يفتح مشروعاً تغيب ملامحه ، لكنه يظل فى الإسكندرية ، وتظل العلاقة إلى نهاياتها ..

واجهه الأب بعينين تنطقان بالغضب :

. لو أنى بدأت مشروعاً فسألغى فكرة السفر ..

. سافر أو مت ..

واتجه إليه بنظرة متسائلة :

. معك قيمة الخلو ؟

ثم علا صوته الراعد :

. نسيت أننا لم نعد نمتلك البيت ؟!..

محمود . وحده . وجد فى قرار الأب بالانتقال من بيت إسماعيل صبرى إلى بيت أحمد كشك ما يقربه من هنادى . أهمل توقع الخطوة التالية . تمنى أن تظل صداقتهما إلى الأبد ..

إلى الأبد ؟ كيف ؟ ..

ترك للأيام مهمة رتق ما يبدو تمزقاً مستحيلاً . استجابت الخادمة لإغوائه . تسلل إلى المطبخ بعد تناهى أهازيج السحر . التمعت عيناها فى اتجاهه ، فأدرك أنها مستيقظة . ساعدته فى نزع جلابيتها ، وأغمضت عينيها . فتش فى داخله عن اكتمال اللحظة ، لكن الإحباط خذله . همس لأمه بشكه فى سرقة البنت لأشياء صغيرة . طردتها الأم ، وأزمعت أن تتولى . بمفردها . أمر البيت ..

بدا القرار مفاجئاً لتوفيق ، وإن قابله بهدوء لا يجاوز طبيعته . ربما انتهت جلسة حجرة القعاد دون أن تنفرج شفتاه . لا يسأل ، ولا يجيب عن سؤال ، ولا يعقب . يظل صامتاً . يكتفى بالابتسامة الهادئة . ربما اكتفى بكلمة واحدة ،

ينطقها بسرعة ، لا يشغله إن كانت قد وصلت إلى محدثه أم لا .

سألت فردوس : لماذا ؟ ، ثم طلبت من هاشم أن يصحبها إلى شارع أحمد كشك لترى البيت الجديد ..

وجد هاشم فى موضع الشقة ما يدفعه إلى مناقشة الأسباب . شقة إسماعيل صبرى تطل على ثلاثة شوارع . الانتقال إلى أحمد كشك يعنى الحياة فى بيت يطل على خرابة ، وسكانه لا يصلحون للجيرة ..

قالت فردوس :

. هل نبتعد عن جيراننا بهذه السهولة ؟

قال رمضان السعدنى :

. سنجد فى البيت الجديد جيراناً آخرين ..

سؤال الأم الرافض وشى بنذر مشادة :

. ما يدفعنا إلى ترك البيت والجيران والشارع إلى بيت فى زقاق ؟

لانت ملامحه ، وتلاشت النظرة المتحفزة :

. البيت فى شارع نجاور فيه أحد أولياء الله ..

وتكلف ابتسامة :

. جوار ولى الله بركة ..

أعادت الأم سؤالها :

. ما يدفعنا إلى الحياة فى زقاق ؟

. اتركى السؤال للأولاد ..

وتلون صوته بحزن :

. بعنا هذا البيت فأصبحت الشقة بالإيجار . نحن نمتلك بيت أحمد كشك ..

داخلته دهشة لعرض ميخاليدس ..

كان قد تردد على بيريه ثلاث مرات فى أقل من سنة . قدم العجوز عرضه فى اليوم الأول لزيارته الثالثة . بدا كأنه يتوقع مجيئه ، وأنه سيوافق على العمل معه . لم يكن يتصور كذلك أنه سيوافق على عرض العجوز بهذه البساطة ، وإن أدرك أن الخيط المرئى الذى ربط بين عرض العجوز وموافقته السريعة ، هذه الحفيدة التى لم تغفل عينا ميخاليدس أن مجيئه إلى الدكان ، وجلوسه إلى جواره ، تسبقه الرغبة فى رؤيتها ، والكلام معها . كانت مشاعر كريستينا . فى عينى الشيخ الفاهمتين . واضحة . ربما قاطعت مناقشاتهما

بأسئلة وملاحظات ، يحدس الشيخ أنها لمجرد التأكيد على أنها صديقته ، وأنه صديقها ..

قال يوسف صديق بلهجته الباترة :

. المثل يقول : انصح صديقك من الصبح إلى الظهر .. ثم ضلله ..

ثم وهو يباعد بين يديه :

. أنا نصحتك ..

ترك ليوسف صديق إقناع القبطان بأن يوافق على تركه . لم يقدم استقالته ، لأنه كان بلا عقد عمل . وافق القبطان ، فزال ما حل فى نفسه من توجس ..

وقف على رصيف ميناء بيريه ، حتى أصبحت الباخرة نقطة ذابت فى الأفق . فوقها يوسف صديق ، وصداقات ، لم يعد يذكر منها إلا ما يحرك وجدانه بالشوق .

***

أعود فى العصر . كانت حجرة القعاد مفتوحة ، ونظيفة . أكتفى بأن أمسحها بنظرة متعجلة ، وأتجه إلى غرفتى ..

يترامى صوت صفارة من الميناء الغربية . يرافق صفارات المراكب صياح الطيور ، ربما لاقتراب البيت من الشاطئ ..

كانت الأسرة تستخدم حجرة القعاد لمشاهدة التليفزيون ، وسماع الراديو ، وتناول الطعام ، وأحاديث السمر . يجلسون على الكنبة الطويلة لصق النافذة المطلة على شارع أحمد كشك ، وعلى الكراسى المقابلة . ربما تحولت الكنبة إلى سرير للنوم ..

فى عودته الأولى ، فاجأه ناجى قشطة بالسؤال :

. لكل بحار عشيقة فى كل ميناء تردد عليه ..

ثم وهو يهز إصبعه :

. هل حدث ؟

احمر وجه الأم ، وكتم محمود ضحكة ، واتجهت عينا فاطمة إلى النافذة المفتوحة ..

لم يكن يتصور أن يسأله ناجى قشطة ، أو يناقشه فى هذه الأمور . اعتاد تعليقاته المجترئة ، وعباراته المحملة بالتورية والعبارات النابية ، وتصرفاته التى لا تراعى أحداً . ما يفد إلى ذهنه يقوله . لا يلحظ حتى إن استمعت الأم أو

فردوس إلى كلماته . أشد ما يثير هاشم معاملته القاسية لفاطمة . يرفض رأيها ، أو يسكتها بإشارة يده ، أو بالتوبيخ . بغيظه أنها صارت . ربما دون أن تدرى . ظلاً لناجى . تلزم البيت لا تغادره إن أراد ، وتتبعه . إذا شاء . إلى حيث يشاء . تحولت إلى طاعة عمياء . حتى ملاحظاته السخيفة وكلماته النابية فى حجرة القعاد ، لا تبين انعكاساتها فى ملامحها . هى صامتة دوماً ، وربما اتجهت بالكلام إلى أمها أو فردوس ..

كان يقضى معظم وقته فى البيت حتى يحين موعد إبحاره من جديد . خلت حياته من الأصدقاء ، فهو يتمشى على شاطئ الأنفوشى ، أو يخترق شوارع السيالة إلى ميدان أبو العباس . ربما امتد سيره إلى السلسلة . يحرص على أن يرنو إلى شقة الطابق الثانى من بيت إسماعيل صبرى . يأمل أن تطل لطيفة ، فيلتقيان . ذوت فرص اللقاء بانتقال أسرته إلى شارع أحمد كشك . ركب البحر ، فلم يعد من المتاح أخذ المواعيد . إذا مال فى تقاطع شارعى إسماعيل صبرى والميدان ، تذكر اللقاء المصادفة . تصارحا بما مضى بهما بعيداً عن البيت ، وبدل حياته ..

قال :

. تواضعى إن أردت الحصول على زوج ..

قالت فردوس :

. من قال إنى أريد أن أتزوج ؟

. هل تنوين الحياة عزباء ؟

. لا تشغلنى الصفة ، ولا أسعى للزواج ..

. ثم ماذا ؟..

حدجته بنظرة متسائلة ..

قال :

. ماذا بعد الرفض ؟

. لا شىء .. الزواج فكرة لا أطيقها !

لم يكن رمضان السعدنى يؤيد التعليم العالى للبنات . يكفى الدبلوم المتوسط ، أو المرحلة الثانوية ، فلا حاجة للبنت بالعمل . ما تحتاجه هو الزوج والأبناء . طلب من فاطمة أن تكتفى بالإعدادية ، فهزت رأسها بالموافقة . سخّف فكرة مواصلة فردوس تعليمها . قال :

. الفتاة تحتاج إلى زوج وليس إلى التعليم ..

أعاد محمود خصلة الشعر إلى موضعها :

ـ فرصتها فى الزواج ستكون أفضل إذا تعلمت ..

قال السعدنى :

ـ أنا أبوها لا أنت ..

وأشاح بيده :

ـ إنه تعليمك فى الجامعة أولاً !

استعاد محمود ملاحظته بأن أباه يتحدث فى هيئة الذى يلقى الأوامر ، فلا يتوقع مناقشته . لا ينتظر سؤالاً ولا رداً . هذا هو الرأى الذى يجب أن ينصت إليه الجميع ، وعليهم أن ينفذوه ..

قدم رمضان السعدنى أوراق فردوس بنفسه إلى مدرسة التجارة الثانوية للبنات ..

اليوم السابع

أتوقف . لحظة . قبل أن أفتح باب حجرة توفيق . اعتدت الإصغاء لتبين ما إذا كان مستقيظاً . أضغط على الأكرة ، فيصر الباب قبل أن تطالعنى رائحة التراب . أشعر بالرطوبة تنفثها الجدران . خليط من التراب والملح والماء . تكوم فى ركن امتد إلى ما يقرب من وسط الحجرة أثاث قديم : كراسى وشماعات وكومودينو ومروحة وغسالة يدوية وأوعية مطبخ ولفات كتب وأوراق وأغطية وستائر وملاءات قديمة وحقائب وسجادة مطوية . أقدر أنها ما استغنى عنه توفيق فى شقته الجديدة ..

أمضى أيام البحر الأولى فى المخزن . فرش لجسده موضعاً بين البراميل والصناديق والسلال وعلب الكرتون ولفافات القماش والورق وأجولة المؤن . اختلطت الروائح فى أنفه ، فلم يميز رائحة محددة ..

ألاحظ وجود تشابكات من خيوط العنكبوت فى زوايا سقف الحجرة . أفكر فى الوسيلة التى تصل بها خيرية إليها

، ونفضها . أتأكد من وجود سلم وراء باب المطبخ . سلم خشبى تكسرت درجتان منه . إن لم تستطع الفتاة استعماله ، أطلب من عم أدهم أن يتيح لها استعمال سلمه ..

نعق غراب من موضع قريب . هل أفعل مثل أبى ، فأنزع ثيابى ، وأظل فى البيت ؟..

قال توفيق وهو يقذف بالجريدة على السرير :

. اقذف بمشاعرك الحزينة فى البحر .. وابتسم !

كان ينتظر حتى ينتهى الجميع من دخول الحمام . ثم يدخل وبيده جريدة ، لا يخرج إلا بعد أن يتم قراءتها ..

واحتضنه بنظرة دافئة :

. كن متسامحاً !

. تصرفاته الغريبة لا تنتهى ..

. لا تتحدث عن أبيك بهذه اللهجة ..

. هل الأبوة أن نرضى بالذل ؟

. من أذلك ؟!

. إنه يتدخل حتى فى طريقة قص شعرى ..

. حبه لنا هو الدافع للقسوة التى نتصورها ..

كان رمضان السعدنى سريع الانفعال ، ويميل إلى العدوانية فى مناقشاته وإشاراته . إذا تحدث علا صوته ، وتحفل عباراته بالسخرية والتسخيف ..

. سأترك لك التسامح . أما أنا فسأترك الإسكندرية كلها ..

قالت فاطمة :

. صل صلاة استخارة .. إن حصلت استجابة فهى مقضية بإذن الله ..

قال ناجى قشطة :

. ما قيمة الصلاة إن كان رب البيت رافضاً ؟!

استطرد لملامح الاستياء فى وجه توفيق :

. أقصد الحاج رمضان السعدنى . إذا رفض سفرك فلن تسافر ..

قال هاشم من بين أسنانه :

. سفرى لن ينتظر الموافقة أو الرفض ..

قال ناجى قشطة وهو يدس ذراعيه فى الجاكت :

. أنتظرك على المغرب فى قهوة سيد غوايش سأصحبك إلى من يريح بالك ..

لم يكن يميل إلى ناجى قشطة ، ولا تصور أنه يتدخل فى حياته . لكنه مضى . عقب تناهى أذان العصر من جامع سيدى عبد الرحمن إلى قهوة سيد غوايش ..

رفض دعوة ناجى قشطة على مشروب ، وأبدى تململه . سبقه الرجل إلى الطريق . مضى فى الشوارع الضيقة ، المتعرجة ، فى المساحة بين توازى شارع الترسانة البحرية وشارع الميدان . تنحنح ناجى أمام بيت من طابقين ، ودفع الباب الخشبى الموارب ، ودخل ..

بدت الصالة أقرب إلى ما يراه فى عيادات الأطباء ، وإن أغلقت الأبواب ، فرانت على المكان رمادية ضوء شاحب من نافذة خلفية خمن أنها تطل على منور . الكراسى مصفوفة فى شبه استدارة أمام الجدران والأبواب المغلقة . ثمة سيدة ترتدى فستاناً طويل الكمين والذيل ، وأحاطت وجهها بحجاب . أسندت جبهتها إلى راحتها ، فلم يتبين ملامحها . وجلس على ثلاثة كراسى متجاورة رجل وسيدة يتوسطهما طفل فى الخامسة ، خمن أنهم أسرة . تشاغل بالتطلع إلى رسم على الجدار المطلى بالجير ، يصور

مكعبات لونية لباخرة تنفث دخاناً ، وحادياً يقود قافلة من الجمال ..

قال ناجى قشطة فى لهجة وقحة وهو يربت فخذه :

. أخفق الشيخ فى شفاء رجلى الثالثة .. لكن سره باتع فى معرفة الغيب ..

ناوشته الرغبة فى أن ينهى الموقف وينصرف . أفاق على دفعة ناجى المترفقة ناحية حجرة ، أطلت من وراء بابها الموارب امرأة أحاطت ملامحها الزنجية بإيشارب ضفرته من أسفل الذقن . أعادت النداء باسم ناجى قشطة ، وفتحت الباب ..

الحجرة خالية ، إلا من آيات قرآنية وأحاديث ودعوات ، منتزعة من الصحف ، وعلقت بدبابيس ، ومرتبة هائلة ، لصق الجدار . يتوسطها موقد نحاسى فى داخله جمرات من الفحم المشتعل ، المضوعة برائحة بخور ، جلس وراءها شيخ ، أبرز ما يميزه أنف نافش ، وشعر طويل مهوش ، تدلى على جبهته وقفاه ، وحاجبان كثيفان أضفيا عليه مظهراً قاسياً ، ووجه المائل إلى السمرة تحيط به لحية تداخل فيها

السواد والبياض ، وانسدلت على صدره . وثمة تآكل واضح فى فتحة أنفه ..

تابع أسئلة ناجى قشطة وأجوبة الشيخ . بدا الكلام واضحاً ، وخفت فصار كالهمس . عبرت الملامح والإشارات عن المعنى . وكان الشيخ يكثر من الحركات والإيماءات والتعبير بملامح الوجه واليدين . التقط هاشم كلمات الربط والجن وأفعال السحر وفك العقدة والعين الشريرة والوصفات والرقى والتعاويذ والأحجبة والثعابين والسحالى وقراميط البحر ، وكلمات أخرى مدغمة ، أو لم يفهم معناها ..

وشت ضحكة ناجى قشطة بعصبية :

. يبدو أنى ربطت بجنزير ..

وأومأ إلى هاشم :

. هذا نسيبى .. له مشكلة من نوع آخر ..

قال الشيخ :

. ما برجك ؟

نظر إليه هاشم دلالة عدم الفهم ، ولم يجب ..

قال ناجى قشطة :

. وما دخل برجه فى ما يعانيه ؟

قال الرجل :

. ما أذكره من آيات يختلف فى برج عن الأبراج الأخرى ..

ثم وهو يمر بأصابعه فى ذقنه :

. هذا ما تعلمناه ..

قال هاشم :

. ولدت فى ثمانية ديسمبر ..

قال الشيخ :

. من برج القوس إذن ..

وعلا صوته بآيات من القرآن ، تلاها بهمهمات كالأدعية ..

كان هاشم قد اتخذ قراره . مضت الفرصة التى يغير فيها رأيه . لن تجدى أدعية ولا طلاسم ولا آيات من القرآن ..

***

تتراجع فاطمة بأعلى صدرها :

. أخيراً ..

. أنا شيخ حارة فى بحرى .. بعد المنشية أتوه ..

شاب لهجتها لوم :

. شارع فرنسا جزء من بحرى ..

أدركت حرص محمود . وهو يذكرنى بالشقة . بأنها فى الطابق الثانى على يمين المدخل . تصورت الوكالة بناية واحدة ، فلها باب وحيد . مدخل الوكالة فى شارع فرنسا يقابله مدخل فى الطريق إلى سوق المغاربة وسوق الخيط وزنقة الستات . أرضيتها من البلاط الكبير ، المائل للصفرة . تتوسطها فسقية بطل استخدامها ، ويحيط بها . فيما يشبه حدوتين . مبنى من قسمين متشابهين فى الباب الخارجى ، والطوابق الثلاثة ، والنوافذ الخشبية العالية ، والشرفات الحجرية ذات النقوش والمقرنصات ، والدكاكين المتقابلة ، للصرافة وبيع الكتب والساعات وأشرطة الكاسيت والمجوهرات وإصلاح الأجهزة الكهربائية والأصواف والحراير والحلوى ، ومكتب سمسار عقارات ، ومخزن لبنك الإسكندرية ..

. تقيمين بمفردك ؟..

. أبقى الله لى أبنائى ..

. كم ؟

. خمسة فى عين العدو .. البنتان والأولاد الثلاثة .. كلهم . بحمد الله . فى الجامعة والمدارس

لاحظ انشغال كريستينا فى قراءة الورقة . لم تتنبه حتى إلى الصناديق التى بدأ فى إفراغها على الطاولة . طوت الورقة . بالمفاجأة . وهى تبتسم :

. هذه رسالة من أبى إلى جدى ، يطمئننا على أمى وعليه ..

أدهشه أنه لم يسأل كريستينا ولا ميخاليدس عن الأبوين : أين هما ؟..

قال :

. أين هما ؟

. يشرفان على زراعة أرض لجدى فى جزيرة كريت..

أضافت لدهشته المتسائلة :

. بقيت هنا لأحصل على الشهادة المتوسطة .. ثم فضلت أن أظل مع جدى .

اجتذبه إليها تلقائية فى الكلام والتصرفات . كانت تستبدل البنطلون الجينز ببنطلون آخر ، يختلف فى اللون والتصميم . تبدل فى البلوزات ، أو تضع فوق البلوزة جاكت من الجينز . مرة وحيدة رآها . فى يوم شتوى . وهى ترتدى فوق ملابسها بالطو من الصوف . كانت أجمل ما تكون حين يشتد البرد ، وتتغطى الأشياء بالجليد . يصطبغ أنفها وخداها بحمرة الورد ..

تردف فاطمة وهى تشير إلى ما حولها :

. الميراث هو الحسنة الوحيدة التى خلفها لنا ..

ويداخل صوتها نبرة اعتزاز :

. أكبر أبنائى عبد الله تخرج فى كلية التجارة .. هو المسئول عن إدارة الشركة ..

وأنا أتجه بعينى إلى مدخل الشقة :

. لاحظت أنك فتحت باباً غير الذى ضغطت على جرسه ..

. نستأجر الشقتين كما تعرف . لما مات ناجى فتحتهما على بعض ..

لم يكن يعرف ما تعانيه ، حتى استمع إلى نثار من كلام أمها إلى أبيه . فاجأها ناجى قشطة بما لم تكن أعدت نفسها له ، ولا تصورته . حدست أنه يعانى تأثير الخمر ، أو الكيف . رمقته بنظرة ساخطة ، ولاذت بحجرة الأولاد . نادى عليها . فى اليوم التالى . من حجرة النوم ، وكرر طلبه ..

قالت :

. الناس يكبرون وأنت تصغر ..

. تهيننى لأنى أطلب حقى ..

. حق إبليس ..

داخل صوته تذلل :

. ساعدينى ليزول تعبى ..

. أى تعب ؟!.. ظننت أنى تزوجت رجلاً ..

وهزت إصبعها فى وجهه :

. إذا عدت إلى هذا الكلام فسأترك البيت ..

. ولماذا ؟ .. سأترك أنا الشقة ، وأقيم بمفردى فى الشقة المغلقة ..

وأردف فى تأكيد :

. واهجروهن فى المضاجع .

وقال فى صوت هامس :

. لولا أنك أم الأولاد لرميت عليك يمين الطلاق ..

فتح الشقة المغلقة . الباب لصق الباب . فى عودته آخر الليل ، وأقام بها . لم تخبر أباها بمطلب الرجل الغريب ، وإن أخبرته بإقامته فى الشقة التى توقعت زواج أحد الأبناء فيها ..

قال رمضان السعدنى فى لهجة باترة :

. أراح واستراح !

ظلت . على مألوف عادتها . تنتظر عودته . ينادى باسمه ، وتردد النداء ، حتى يصعد إلى شقته . يضىء النور ، ويغلقها عليه ..

قرأ فى رسالة توفيق أن الطبيب الشرعى أنهى شائعات الجيران . قالت إن فاطمة وضعت فى كوب الشاى نباتاً مسموماً ، أوصت عليه عطاراً فى سوق الترك . لم يقتله ، وإن ذوى جسده وذبل ، بعد احتسائه له ، وركبته الأمراض ، وتأمل ما حوله بذهول ساه . فلما مات بدا كأنه مات ميتة

ربه . وترددت همسات أنه مات متأثراً بعلة ، صنعها له شيخ فى كرموز بكلمات من السحر ..

قال محمود :

. الرجل يادوب يفك الخط ..

قال رمضان السعدنى :

. فلوسه تلغى شهادتها ..

واتجه إلى محمود بنظرة غاضبة ..

. فاطمة تريد رجلاً يسعدها ..

كتمت فاطمة احتجاجها . اعتبرت قرار أبيها قدراً لا تملك رده . استغرق الأمر أقل من شهرين . أعدّت الشقة المطلة على الساحة الصغيرة ، وأعيد تأثيثها . بدا الأب مطمئناً لقراره فى شركة النقل التى ورثها ناجى قشطة . بمفرده . عن أبيه . توزع أسطوله من السيارات بين أرصفة الأخشاب والفحم والأسمدة الكيماوية والدقيق وشفاطات القمح . رنت الأم إلى عينى فاطمة ، فاطمأنت لرضاها . انشغلت . فى الأيام التالية . بأعمال البياض والتأثيث والتنجيد ..

اعتبر توفيق موافقة أبيه على زواج فاطمة من ناجى صفقة ثمنها فاطمة . ما أذهله أن رمضان السعدنى لم يحصل على مقابل فى الصفقة . لعله وجد المقابل فى مجرد زواج فاطمة ..

فاطمة ؟..

لم يكن يتصور ناجى زوجاً لشقيقته . كتم المشاعر الموارة فى نفسه. موافقة فاطمة جعلت رفضه . لو أنه أعلن الرفض . بلا معنى . خشى أن تتهمه بأنه وقف حائلاً دون زواجها ، بعد أن سكت على قرار أبيها بأن تترك المدرسة . حتى أمه لم تناقش الأمر . أدرك أن أمه تناقش ما يعانيه حين قالت فى لهجة مشفقة :

. ما نعرفه عن الرجل مجرد كلام .. تستطيع فاطمة بالعشرة الطيبة أن تحافظ على بيتها ..

اعترض توفيق على إقامة حفل الزفاف فوق سطح البيت :

. هل نقيمه على جثث المعازيم ؟!

ثم وهو يحك ذقنه فى حيرة :

. لى صديق ضابط ربما ساعدنى على إقامة حفل الزفاف فى نادى الشرطة بمحطة الرمل ..

غاظ محمود من أخته استسلامها اللامبالى . كأن الأمر لا يخصها ، أو أنها تخضع لإرادة قدرية ، من المستحيل ردها . قال دون تدبر :

. والعريس ناجى قشطة ؟!

رمقه أبوه بنظرة ساخطة ..

أشار الضابط إلى الجنود . رفعوا الشيش المعدنى ، فاقتحم الضوء الدكان الخالى إلا من كنبتين متقابلتين ، جلس عليها رجال عرّوا ما بين أفخاذهم ، وانشغلوا بالتهوية عليها . أدرك الضابط ما يحدث ، فصرخ فى غضب :

. تشوون ذرة يا أولاد الكلب !

قال ناجى قشطة لنفسه بصوت مرتفع وهاشم يصحبه من قسم الجمرك :

. يكسب الإنسان ثواباً إذا حمل نعش الميت لحظة ..

. أنا أضمن الجنة لأنى أحمل بين فخذىّ ميتاً منذ خمسة أعوام ..

وأظهر الأسى فى هزة الرأس :

. أكتفى الآن بتخيل مالا أستطيع أن أفعله ..

وانسحبت رعشة إلى صوته :

. تركت خيالى يضاجع ما يروقه من النساء ..

عرف عنه ميله إلى ذوات الملاءات اللف . يجد جمال المرأة فى امتلاء ردفيها . يثيره مشهد الأرداف المهتزة فى التثنى والتأود . لا يعطى انتباهاً لمن يسير إلى جواره ، فاطمة ، أو أحد الأولاد ، أو صديق . يتبع المرأة فى الشوارع الخالية . يهمل حرارة الشمس ، أو البرد ، وتعب الطريق . يطالعه الزحام ، فيعود . وشاهده محمود . ذات مساء . فى ميدان المنشية وامرأة ترتدى الملاءة اللف ، تتأبط ذراعه . وكان يقظى معظم الليالى فى بارات حى اللبان ، ويطيل الوقوف أمام دور السينما ، وعلى محطات الترام والأوتوبيس . يبحث عن الشاب الذى لا يرده ولا يفضحه ، إن لم يوافق على أن يصحبه إلى البيت ، يضاجعه ، ربما يوقظ عافيته . لم يكن يضايقها ما يبلغها من تصرفاته . فهو يعود إلى البيت . حتى لو تأخر . كل ليلة ..

قال محمود :

. أثق أنه لو خير ناجى بين بريجيت باردو وامرأة من االكورنيش فسيختار الثانية ..

قال الأب فى غضب :

. لا تخرب على أختك بملاحظاتك السخيفة ..

ترامت إلى رمضان السعدنى أصداء من تصرفات ناجى قشطة . اعتبرها وشايات ، فلا يلتفت إليها . قال : لم أر من الرجل ما يعيب ، ولا شكت لى فاطمة .. فلماذا أهد بيتها ؟!

أغالب الارتباك :

. فاجأنى موت ناجى ..

. أنا لم أفاجأ ..

. عرفت أنك عانيت ظروفاً قاسية ..

أحدس أنها تعلم ما فى نفسى . اعتدت صمتها ، ونظرتها الفاهمة ..

أردف فى ابتسامة مشفقة :

. أتعبك ناجى كثيراً ..

وهى تضغط على الكلمات :

. ناجى مات من الخوف ؟..

أهمس :

. هل ..

تقاطعنى بهزة من يدها :

. كان يخاف الظلام .. أصيب بالعمى فمات من الخوف ..

اعتادت . منذ إقامتها فى شقته المطلة على وكالة الأوقاف . أن تنتظر عودته . تطل من النافذة على الساحة الصغيرة ، يلفها الصمت والظلمة . فيما عدا ضوء خافت من أعلى باب دكان المجوهرات قبالة البيت . يعلو نداءه فى مدخل الوكالة باسم الابن مرسى . ترد باسمه : ناجى . يقترب نداؤه ووقع قدميه . لا يتوقف وهو يقفز سلالم البيت . حتى يلتقط أنفاسه داخل الشقة ..

كان الخوف من الظلمة يلح عليه . عقدته التى لم يخفها . حتى عندما أقام . بمفرده . فى الشقة الملاصقة . ظل يواصل النداء باسم مرسى ، وتواصل الرد باسمه . وكان يضىء كل لمبات الشقة . ويطلب ما يريده وهو يخرج من الباب . لا ينظر ناحيتها ، ولا ينتظر أسئلة ولا أجوبة ..

لم يلحظ الانطفاء التدريجى لبصره . ساعد عليه إهمال أعراض مرض السكر ، وشرب الخمر ، وتعاطى المكيفات . أرجع النتائج إلى غير بواعثها ، وواصل حياة السهر إلى مطلع الفجر ..

حين غطى العمى عينيه ، تملكه خوف لم يقدر على مغالبته . هو يكثر من الأسئلة ، ويشكو ، ويعلو صوته ، ويصرخ ، ويصر على أن تظل فاطمة فى الحجرة لا تفارقه . أضاف إلى ما يعانيه امتناعاً عن تناول الطعام . رفض كل ما قدّم إليه ، شكاً ، أو حزناً ، أو خوفاً مما لا يراه . وجد الحياة مستحيلة . هز رأسه للتحذيرات المشفقة من الموت ، دلالة أن هذا هو ما يريده بالفعل ..

زاد نحوله ، وأحاطت هالتان من السواد بعينيه ، وصار بياض العينين أميل إلى الصفرة ، وامتقع وجهه ، وانتشرت فيه التجاعيد ، وتهدل خداه ..

لم يعد يغلق باب الشقة . يتركه مفتوحاً إلى الصباح . خمّنت دلالة التصرف . هل يشعر بدنو الأجل ؟..

لما غاب نداؤه ليلتين ، دفعت باب الشقة الموارب ، وعلا صواتها ..

وهى تربت ركبتى بأصابعها :

. عشر سنوات منذ أقمت فى الغربة لم ترو لى حكايات ..

كانت فاطمة تظهر سعادتها بما يرويه عن حكايات البحارة ، وما يصادفه فى البحر ، والحياة فى الموانى والمدن البعيدة . يتحدث عن مآزق عدم فهم اللغات الأخرى ، وعادات البشر . تسأل ، وتستعيد الحادثة ، تظهر استهوائها للحكايات الغريبة . يخترع معظمها . عن القراصنة ، والكائنات البحرية ، وعرائس البحر ، والجنيات ، والأشباح التى تعترض البواخر ..

أتجه إليها بنظرة مباشرة . السمنة الواضحة بدلت الكثير من الملامح المنطبعة فى ذاكرتى . ضاقت العينان ، وظهرت دوائر من التجاعيد حول الشفتين . اكتفت بلف رأسها بإيشارب رمادى ، وأهملت الشعرات البيضاء المنسدلة على جبهتها ..

. ألا تخرجين ؟

. أحياناً أنزل مع البنتين إلى المنشية وسوق راتب ..

تضيف متذكرة :

. ربما زرت فردوس وتوفيق ..

. ومحمود ؟

. يزورنى بين وقت وآخر ..

ثم فى مرح متكلف :

. وأنتظر من الآن زياراتك ..

***

يبدو لى ضوء الأباجورة الموضوعة على الكومودينو المجاور للسرير خافتاً ، ومتعباً فى القراءة . أزمع شراء لمبة أقوى ..

ترامت . من النافذة . أصوات متلاغطة . أطل ، فرأى ناساً التفوا حول شاب فى قامة جمعة . هو جمعة . التف حوله أولاد ، يصفّقون فى إيقاع منغّم ، وهو يهز جسده كالراقص ، يلوح بذراعيه وساقيه ، ويصدر من فمه أصواتاً عفوية ، عالية ، وإن اختلطت كلماتها ، فهى بلا معنى محدد ..

كانت أمه ترفض نزول جمعة إلى الشارع : الأولاد يضايقوه ! نتأمل باعث الرفض ، فنقتنع . لكن جمعة تسحّب . ذات عصر . وقفز على درجات السلم . لم تأخذ الأم

بالها إلا بعد أن مال على ناصية الطريق . عرف جمعة بعدها كيف يفتح الباب ، وينزل السلم ، ويواجه الطريق والدكاكين المفتوحة والمغلقة والباعة والأولاد المنهمكين فى لعب الكرة . عرفت الأم كذلك أنها لن تستطيع منعه ، وإن أصاخت سمعها لكل نداء أو صرخة ، ربما أذاه الأولاد أو ضايقوه : الحقوا الولد !.. وتطلب من الأب أن يطل من النافذة ، أو ينزل إلى الأولاد ، ليكفوا عن تصرفاتهم ..

لم يعد يطيق الجلباب على جسده . يتركه حتى ينزل من البيت . إذا مال إلى شارع صفر باشا ، أو إلى شارع خلف السور ، نزع جلبابه ، وجرى . تلمحه أعين الأولاد ، فتتنادى صيحاتهم . يكبر الموكب حتى يلتقى بصديق لأسرة الصبروتى . يحتضن جمعة ، ويطرد الأولاد ..

كان الحزن يخترقها عند قدومه ، وفى جيوبه بقايا سندوتشات ، أو حبات فاكهة . صرخت حين وجدت فى يده عشرة قروش ..

. من أعطاها لك ؟

وهو يتشبث بالورقة المالية :

. هذه فلوسى ..

. سرقتها ؟

. أعطاها لى الرجل ..

. أى رجل ؟

هز رأسه :

. الرجل ..

صرخت . لطمت خديها . ضربت صدرها بقبضة يدها . نزعت الطرحة من رأسها فظهرت تموجات البياض فى الشعر المصبوغ ..

استطالت وقفة الأب على باب الحجرة :

. ماذا حدث ؟

هزت الورقة المالية أمامه ، وأشارت إلى جمعة الذى اكتفى بالنظر إلى قدميه ..

وبكت .

اليـ . ـوم الثامـ . ـن

أظل فى وقفتى على باب حجرة فاطمة وفردوس ، حتى أعتاد الظلمة ورائحة الإغلاق والرطوبة . أحدق بعينين متأملتين . تبدو لى أضيق مما أذكره . خالية من الأثاث ، وإن انطبع فى ذهنى ، السريران المتقابلان ، ظلا فى موضعهما حتى بعد أن تركت فاطمة البيت ، ودولاب بامتداد الجانب الأيسر ، وفى الزاوية اليمنى . إلى جانب الباب . تسريحة تناثرت فوقها أدوات ماكياج لفردوس ، وطاولة صغيرة عليها مفرش من الدانتيلا ، فوقه راديو ترانزستور . وعلى الجدران صور كثيرة لفنانين مصريين وأجانب ..

قالت فردوس لمحمود :

. بنت اسمها هنادى .. اتصلت بالتليفون ..

. ألم تترك رقم تليفونها ؟

. ادفع لى مرتب سكرتيرة .. أحتفظ بالأرقام والعناوين أيضاً ..

اتجه إليها هاشم بنظرة لوم :

. محمود محاميك أمام محكمة الحاج رمضان السعدنى ..

شوحت بيدها :

. تعطون لأنفسكم حقوقاً تتكرونها علينا ..

أهمل محمود انسدال الشعر على جبهته :

. لا تغضبى .. إن اتصل صديقك فسأحتفظ لك برقم تليفونه ..

البساطة التى تكلم بها وشت بثقته فى خلو حياتها . كان يوسف صديق قد اجتذبها . وإن لم يلحظ أحد ، ولا واتتها الجرأة لأن تفض عما بنفسها . فى اللحظة التى رنت إليه عيناها ، وهى تضع صينية الشاى . لم يواجهها بنظرة من أى نوع . تمتم بعبارة شكر ، واستمر فى حديثه مع هاشم . أعطت انتباهها لما رواه هاشم . فى حجرة القعاد . عن يوسف صديق . موظف فى الدائرة الجمركية ، تعرف إليه فى الساحة الملاصقة لحلقة السمك . تبادلا إبداء الملاحظات على مباراة الكرة بين لاعبين من الاتحاد والأولمبى . واصلا الكلام فى سيرهما نحو سراى رأس التين . استأذن هاشم فى ناصية صفر باشا ، ومضى ناحية أحمد كشك . واصل

يوسف صديق سيره ، ثم مال إلى شارع جودة . لم يتكلم . لفترة طويلة . عن ظروفه الأسرية ، ولا أين يقيم ، وإذا سار معه ، استأذن فى انحناءة شارع جانبى ، ومضى بمفرده . حدس أنه يحرص على أن يضع حياته الخاصة فى منطقة الظل . لا يشير إلى طرف خيط ربما التقطه هاشم ، فعرف . فى نهايته . ما يحرص على إخفائه ..

تكررت زيارته لهاشم . اطمأن إليه ، فوارب الباب المغلق ، ثم فتحه . تكرر دخول فردوس بصينية الشاى . لم يكن يحول عينيه فى انشغالهما بالكلام . حتى عندما أضافت إلى وضع الصينية تقليب السكر فى كوبى الشاى ، لم يحول اتجاه نظرته . أزمعت أن تطيل وقوفها فى الحجرة . سألت فى ما أسعفها به خاطرها . قاطعها هاشم : بعدين ، ولم تتحول عنه عينا يوسف صديق ..

لم تجد الأم فى تصرفات فردوس . حين ناوشتها الهواجس . ثغرة تدفعها إلى تعنيفها ، أو حتى التشديد عليها بالنصيحة ..

همس هاشم لمحمود :

. هنادى .. أليست ابنة الشرقاوى تاجر المانيفاتورة ؟

دفعه محمود بيد غاضبة :

ـ ليس شأنك ..

لاحظت ندبة فى ساعده . قال إنها نتيجة تعثره وهو يجرى على الشاطئ . زال أثر الحصوات التى ارتطمت بوجهه وجسده ، وظلت الندبة فى موضعها ..

صعدت . بتلقائية . إلى صخرة تختلط بالرمال . علت بقدميها الحافيتين ، ولفت ذراعيها الرفيعتين حول أسفل العنق ، وطوحت شعرها إلى الوراء . أغمضت عينيها ، ومدت بوزها تنتظر أن يقبلها . لامس شفتيها بقبلة سريعة . فتحت عينيها ، ودست شفتيها الصغيرتين ، المزمومتين ، فى فمه ..

لم تكن هذه هى الفتاة التى يبحث عنها ، ولا يتصور أنه يحبها ، أو يحس إزاءها بميل جسدى . يشغله أن تكون قريبة منه ، يكلمها فى أموره الشخصية ، وتشكو له ما تعانيه من شقيقها الأكبر . جمالها يستهويه تماماً . يتمنى . ليست أمنية ، فكل ما فيها يوافق . لو عانقها ، وغابت فى حضنه . يزمع عناقها . يعانقها بالفعل ، لكن ما يحدث ليس مقدمة ولا تمهيداً لما تنتظره الفتاة . لا يعجز عن الفعل ، لكنه لا

يريده . البركان يظل فى خموده ، أو أنه ميت لا يعد بشىء . يكتفى بالعناق ، بملامسة راحته لتضاريس الوجه والجسد ، ثم يخلى ذراعيه ، يهبطان إلى جانبه ..

أحس أنه . فى لحظة ما قريبة . لابد أن يقدم على إنهاء علاقتهما ..

لو أنه أقدم على ذلك دون أن يسئ إليها ..

يضايقه خلو صدره وذراعيه من الشعر . يحس أنه أقل رجولة من أصحابه . يرفعون أكمام القمصان ، ويكشفون الصدور ، بينما يظل حريصاً على الكم الطويل والقميص المغلق .

ماعدا الكتب الدراسية ، لم يكن قرأ كتاباً من أى نوع . ينظر فى إشفاق إلى هاشم الذى يضيّع عينيه ووقته فيما لا جدوى منه . حاول هاشم أن يحفزه على القراءة . أعاره كتباً حدس أنها تهمه . قضايا تناولتها المناقشات وهم يجلسون حول مائدة الطعام . تبين أن الكتب ظلت فى مواضعها حيث تركها محمود ..

قال هاشم :

. لم أقصد مضايقتك ..

لم يكن يملك التنبؤ بمواقف محمود ، ولا بما يشغل ذهنه ، ولا المساحة التى يأذن للآخرين بالتحرك فيها . كان يبدو له طيباً وشريراً فى لحظة واحدة . يوافق على تعبير ، أو تصرف ، ثم ما يلبث أن يرفض تعبيراً ، أو تصرفاً آخر ، ويكثر من اتخاذ قرارات الخصام . كانت تصرفاته وكلماته تغيب فيها المجاملة . ربما نطق كلمة نابية دون مناسبة ، وكثيراً ما يبدى الأسف ، أو الاعتذار ، عن كلمات ينطقها دون تدبر ، أو عفو الخاطر ..

. أعرف .. ولكن هنادى مجرد صديقة ..

وزفر :

. ما يشغلنى الآن هو أن أحصل على بكالوريوس التجارة ..

ورمقه بنظرة متسائلة :

. أتصور أن الشهادة الجامعية تشغلك أنت أيضاً ..

تقاسم الحجرة مع محمود منذ طفولته ، فلا يذكر أنهما جلسا للكلام ، للأخذ والرد ، السؤال والجواب ، الاتفاق والاختلاف فى الرأى . لا يروى محمود لهاشم عن حياته خارج البيت ، ولا يفض هاشم لمحمود عما بنفسه . هما

شقيقان ، وإن شحبت العلاقة التى تتحقق بكشف السر ، والتماس النصيحة . يدرك موقعه فى نفس محمود من النظرة الحانية ، والملاحظة المشفقة ، والعبارة التى لا تعنى شيئاً محدداً ..

***

أعبر المسافة القصيرة فى بسطة السلم إلى الطوابق التحتية . يترامى الصوت من وراء الباب المفتوح :

. صباح الخير يا سى هاشم .. حمد الله على السلامة ..

يداهمنى الارتباك ، فأكتفى بغمغمة ما لم أحدده من الكلمات ..

هل أواصل النزول ، أو التفت إلى مصدر الصوت ؟..

بدت المرأة . فى لفتة سريعة . ممتلئة الجسد بما أبعدها عن بؤرة التذكر ؟ هل هى زوجة الطابق الثانى ؟ . أذكر زيارتها لفاطمة وفردوس ، تملأ الشقة بدعاباتها ونكاتها ، ولضحكتها ذيل ، كان أبى لا يخفى . فى حجرته . ضيقه به . أذكر صيحتها : الله ! . وملامح وجهها التى تفيض بالفرحة ..

هل تبدّلنا السنوات إلى هذا الحد ؟..

ما أتذكره فى الشارع لا تتحقق لى استعادته من الغلالة الرمادية التى انسدلت عليه ..

هل رآنى عم أحمد البواب فى المرة الأولى ، فلم يشأ . فى هذه المرة . أن يعرفنى بأنه رآنى ، وأنه يتذكرنى ؟..

يواجهنى بعينين باسمتين ، ورأس مدفوس بين كتفيه ، وذراعان متهدلان بجانب جسده ، كأنهما منفصلان عنه ، ووجه متجعد ، وفم خلا من الأسنان ..

. زرت الأسرة فى العيد الكبير .. عرفت أنهم تركوا البيت ..

. مات الوالد والوالدة كما تعلم .. ومات أخى جمعة .. انتقل أخوتى إلى بيوتهم ..

. السكان يذكرون جيرتكم بالخير ..

فتشت عن الكلمات بما لا يلفت انتباهه :

. هل الجميع بخير ؟

. بخير .. حسن ابن جماعة الطابق الثانى تزوج وانتقل إلى بيته ..

ولطيفة : أين هى ؟

. أخته الست لطيفة .. تزوجت قبله من أستاذها فى الجامعة ..

هل كان يعلم ؟ هل رآنا فى لقاءاتنا بعيداً عن البيت ؟ .. ولكن : هل يذكر ما مضى عليه ثمانية عشر عاماً ؟..

ويشير إلى شرفة الطابق الثانى :

. تزور أمها كل فترة ..

أهمس بعفوية :

. والأب ؟

. الموت على رقاب العباد ..

ألمح كابينة التليفون فى ناصية شارعى محمد كريم وإسماعيل صبرى متاحة ، فأتصل بتوفيق . الصوت الذى أفتقده يأتى عبر الأسلاك :

. فهمت من رسائلك أنك ربما لن تعود ..

. تصورت ذلك بعد الزواج ..

. ثم ..

. عدت .. ولن أسافر ثانية إلا للعودة بزوجتى ..

أستطرد ، ربما لأزيل لبساً فى داخلى :

. إذا سارت الأمور كما أتوقع ..

. هل توجد مشاكل ؟

. أرجو حلها ..

. ألم تنجبا ..

. قررنا تأجيل الإنجاب ..

. إذن ..

. أصعب الأمور أن تعانى فراق أحبائك مع أنك تحيا معهم ..

. لا أفهم ..

. هذه حكاية يطول شرحها ..

لم تحمل رسائل توفيق أية إشارة إلى لطيفة . وعد أن يكتب لها من الباخرة ، ومن الموانى التى سترسو عليها . يحدثها عن الناس الذين يحيا بينهم ، ويلتقى بهم ، وعن أحوال البحر ، والمشاهد العجيبة . حتى الطعام الذى يأكله وعدها أن يكلمها عن أنواعه ..

بعث رسالتين إلى حسن ، تحدث فيهما عن الحنين إليه ، وإلى بحرى ، والإسكندرية . توقع أن تقرأ لطيفة الرسالتين ، كما اتفقا . ضمّنها تعبيرات ، تصور أنها ستدرك مخاطبته

له بها . اقتصر ما تلقاه من رسائل على ما كان يبعث به توفيق . حدّس أن حسن لم يعرض الرسالتين على لطيفة ، ولم يعن بالرد عليه ..

انشغل بالعمل فى الدكان وحب كريستينا . واربت الباب ، ففتحه . شجعه تغاضى الرجل ، وربما تشجيعه . وكان يلزم البيت . أحياناً . لشعوره بالتعب ، ويترك لهما أمر الدكان ..

اعتاد المشهد أمام الدكان . الميدان الصغير نصف دائرة . يفضى . من اليسار . إلى سوق الخضر . ومن اليمين إلى حى سكنى . شوارع ضيقة ، متعرجة ، وبلاط من البازلت ، وبنايات متوسطة الارتفاع ، ذات جدران بيضاء ، وأسقف من القرميد الأحمر . فى الناحية المقابلة جدار بناية متهدمة ، ودكان لبيع الزهور ، وصيدلية ، وحلاق ، وتحتل مساحة من الرصيف شجرة هائلة . لما حل الشتاء ، عانى البرد . فاجأته ندف الثلج والصقيع والمساحات البيضاء تبين من وراء النافذة المغلقة إلى مدى الأفق . الثلوج تغطى الأشجار وأسلاك النور وأسطح البيوت الصغيرة وتندات المحال وجوانب الطرق . اعتاد وجود

المجرفة بجوار باب البيت ، لجرف الثلوج إذا سدت الطريق ..

قالت كريستينا :

. ألا تطل الإسكندرية على البحر المتوسط ؟

قال هاشم :

. هذا صحيح .. هى تعرف المطر والبرد .. لكنها لا تعرف الجليد ..

. بالمناسبة .. هل العطارين مدينة كبيرة ؟

نطقت الاسم بصعوبة واضحة ..

قال :

.العطارين حى فى مدينة الإسكندرية ..

. جدى يتحدث عن العطارين ، ولا يتحدث عن الإسكندرية ..

. هذا هو الحى الذى عاش فيه ..

. أتصور من وصف جدى أنه أجمل أحياء الدنيا ..

. الإسكندرية كلها جميلة ..

اتسعت البسمة فى وجهها :

. وأنت .. ما الحى الذى عشت فيه ؟

. بحرى .. حى يشبه جزيرة فى داخل البحر ..

. هل تحبه ؟

. طبعاً ..

. وأنا أحب بيريه ..

كان الحنين إلى مصر ، إلى الإسكندرية ، إلى بحرى ، يناوشه . يزجره ، ويكتم النداءات المتصاعدة فى داخله . لاحظ أن علاج الشوق بسماع الأغنيات العربية يأتى بعكس ما يريده : تنقله إلى أماكن وأحداث وشخصيات . أهمل حتى ما كان فى حوزته من كتب بالعربية ، واستمع إلى الأغنيات اليونانية ، وأقبل على تعلم اللغة ، ومحاولة الاستعانة بالمفردات التى يلتقطها فى الدكان والمقهى ، لمتابعة برامج التليفزيون . حواراته القليلة مع كريستينا ، اقتصرت . فى الأشهر الأولى . على تعبيرات اليد وملامح الوجه . ربما نقل العجوز . وهو يضحك . ما يريد كل منهما قوله إلى الآخر . كان يفطن إلى مدى تقدمه فى تعلم اليونانية ، بالكلمات ، أو الجمل المكتملة فى داخل التعبيرات الصامتة . أشرق وجهها بالفرحة لما قال باليونانية : تى أوراه إينيه ؟ (كم الساعة الآن ؟) . لم يفهم ردها عليه . علت يدها

بإصبعين فعرف أن الساعة الثانية . زاد تضمينه الكلمات والجمل اليونانية ، حتى اعتاد التحدث بها ..

طمس حبه لكريستينا ذكريات كثيرة ، حتى رسائله إلى توفيق تباعدت إلى حد الندرة . غاب إحساسه بالغربة ، فهو فى بيريه يعمل ، ويطمئن إلى تصريح العمل فى جيبه ، ويخالط الناس ، ويجلس على المقاهى ، ويتجول . بلا خوف . فى الأسواق ، ويحب . ذوى إحساسه بالمطاردة ، أو تلاشى تماماً ..

***

أفتح . لأول مرة . باب حجرة الصالون . خالية تماماً ، وإن ومضت صورة الصالون المذهب كسته أمى بغطاء أبيض ، يقيه من التراب ، وتنزعه لاستقبال الضيوف . ألمح قطعة قماش متيبسة ، ألتقطها من بين الأشياء الصغيرة المتناثرة فوق الأرضية الخشبية : قلم رصاص ، علب أدوية ، بقايا كوب زجاجى ، قطعة صابون ، مجلة منزوعة الغلاف ، مشابك غسيل ، صورة لعبد الحليم حافظ ، أوراق من نتيجة حائط ، سودها التراب فلا تكاد تبين ، قشر برتقال تعفن ، ثم غابت رائحته . أتحسس قطعة القماش

بأصابعى ، وأقربها من عينى . ما تبقى من الإيشارب الذى كانت أمى تحرص على لف رأسها به . تفرده فور نهوضها من السرير ، وتحكم لفه . تنزل بالقدم اليمنى ، تبدأ يوماً ينتهى بعد صلاة العشاء ..

قالت الأم :

. لن تجد فى بلاد النصارى بركة سيدك منصور ..

قال هاشم :

. يكفى أن أجد حرية نفسى ..

علا صوت الأم :

. هل أدخل أبوك رجليك فى الفلكة ؟!..

. أدخل حريتى .. ولسانى ..

. إنه ليس أباك وحدك ..

. ليس معنى أن يقبل أخوتى تصرفاته ، أن أقبل أنا أيضاً ..

تمددا على السرير المطل على شارع جانبى فى بيريه ، يطل . فى جانبه . على تقاطعات ينتهى أحدها إلى شاطئ البحر . يتخلل عناقهما إعجاب بالإسكندرية التى يتحدث عنها ميخاليدس . لم يحاول تبديل الصورة التى

رسمها خيالها . تتناقض حتى ما رواه العجوز عن أعوام إقامته فى الإسكندرية ..

قالت :

. جدى دائم الحديث عن مصر .. وعن المصريين ..

وهزت قبضتها :

. لم أكن أعرف أنى سأتزوج مصرياً ..

كان آخر سكناه . قبل أن ينتقل للإقامة فى بيت ميخاليدس . حجرة صغيرة تطل على البحر ، والجزر المتناثرة فيه . وعلى البواخر العابرة ، والراسية فى الميناء . أقام فيها مع ثلاثة عمال من الإسكندرية . مناقشاتهم باللهجة المصرية يعوضه عن اقتصار النطق باليونانية ، واستكمال ما يعجزه التعبير عنه بالإشارة ، أو بتداخل اللغتين . حرص على أن تظل علاقته بهم فى إطار الجيرة . تغيب الصداقة فى أحاديث الغربة والحنين والجنس والعملات . يخوض المناقشات ، يسأل ويجيب .. لكن الخصوصية تظل داخل النفس ، لا تبين عن ملامحها . يثق أن هذا هو أيضاً ما يحرص عليه زملاء الشقة ..

حين عرض على ميخاليدس أن يتزوج من كريستينا ، اتجه إليه العجوز بنظرة متسائلة :

. كنت أنتظر هذا الطلب منذ سنوات ..

ثم وهو يهمس بنبرة ملونة :

. ما الذى أخرك ؟

لم يخف فرحته :

. هل توافق ؟

. هذا شأن كريستينا .. أنت فى بيريه لا فى الإسكندرية ..

وقع فى السجل المفتوح أمام موظف العقود . استدعى صورة المأذون فى صحن أبو العباس . يرقب الخطوات منذ بداياتها : الشيخ . معمم أو عارى الرأس . يتحدث . بآلية . عن فوائد الزواج ، وآيات القرآن ، والأدعية ، والمنديل الأبيض يغطى اليدين المتلامستين . زوجتك ابنتى ، وأنا قبلت . والزغاريد ، وعبارات التهنئة ، والشربات ، والزفة حول الميدان ..

وهما يغادران مكتب العقود :

. فى بالى صورة المأذون ..

هزت رأسها دلالة عدم الفهم ..

رسم على الهواء فى هيئة الذى يكتب :

. مثل القسيس .. يجرى عقود الزواج ..

ربتت يده :

. لا قسيس ولا الرجل الذى تحدثت عنه .. هذا الحفل أنسب ..

بدا زواجهما فاصلاً بينه وبين مطاردات الشرطة ، وتصاريح الإقامة ، والتعليمات ، والملاحقات ، والمطاردات ، وتوقع الخطر . تزوج فتاة يونانية ، يحبها . تهبه الحق فى أن يقيم بلا خوف ، وتقرب له إمكانية الحصول على الجنسية اليونانية ..

أظهر تأثره لما أصر ميخاليدس على أن يدفع له غرامة التخلف عن التجنيد . تكرر ترددهما على مبنى السفارة . تحول التأجيل إلى إعفاء ..

افتر فم العجوز عن ابتسامته الطيبة :

. أفلحنا فى إنقاص أسباب القلق !

الإسكندرية ذكرى غائمة الملامح . لم يعد بشغله تبين تفاصيلها ، ولا محاولة استعادتها ..

اليوم التاسـ ـع

أصحو على صوت طرقات مختلطة ومتوالية . أخمن من الأخشاب التى بدأ العمال فى تثبيتها ، والبيارق ، والأعلام ، والخيام المطوية ، والصناديق الهائلة ، المغلقة ، وأقفاص الجريد الممتلئة باللمبات الكهربائية ، والكلوبات ، والمرجيحة المفكوكة ، وأوانى الطعام .. أخمن من الحركة الصاخبة أنه بدأ الإعداد لمولد سيدى منصور ..

ألمح . فى طريقى إلى دورة المياه . المستطيل الذى تختلف مساحته عن بقية الجدار . هو الموضع نفسه فوق كنبة الصالة . علق فيه أبى خريطة لشوارع الإسكندرية . مربعات ومستطيلات ودوائر وألوان . يكرر تأملها . يشير إلى ما يشبه رأس الدبوس ، ويتجه إلى الباب . لم أر الخريطة فى بيت محمود ، فهل أخذها توفيق ؟ وهل استغنى أخوتى عما كان فى الشقة ، أو أنهم تقاسموه ؟

كان يترك البيت فى الضحى . يمضى فى الشوارع دون وجهة محددة . مجرد أن يبتعد عن الوحدة فى البيت . يقضى الساعات سائراً ، بلا هدف محدد . مجرد البحث عن

ألفة المكان ، وأنه ينتمى إليه . يتأمل الشوارع الخالية والدكاكين التى أغلق معظمها أبوابه ، ولافتات التوكيلات الملاحية وشركات السياحة والنقل والتخزين والاستيراد والتصدير وتفريغ السفن . ينتهى إلى الجلوس فى الحديقة المطلة على الميناء ، أمام مرسى " زيوس" المزدحم باليخوت والسفن الصغيرة . مستطيلة ، تحيط بها أشجار قصيرة ، وتتقاطع فى داخلها طرقات من البلاط الأسود المنقوش ، وصفت كراسى مستطيلة خضراء من الخشب . وفى الوسط دوائر من الورود والأزهار أجيد تنسيقها فى تكوينات . فى قلبها نافورة تعلو مياهها ، يتناثر الرذاذ ، فيصل إليه . حيث يجلس . بالبلل والبرودة . يتطلع إلى البواخر ، والحاويات ، وأبراج الكنائس ، والطوابق العليا من العمارات . ميز . فيما بعد . سيدة فى حوالى الستين ، تأكل الطيور من طبق تحمله ، وجد فى الكلام معها وسيلة لإجادة اللغة ..

لم يشعر بالاختلاف ، وإن شعر بالغربة . الساحل المطل على أفق المياه والمراكب الصغيرة لا يجاوز به بحرى . شوارع بيريه تطالعه بما اعتاد رؤيته فى الإسكندرية ، وإن تغيرت انعكاسات الرؤية فى الصداقة

والمعرفة والجوامع والأذان وأضرحة الأولياء والموالد وحلقات الذكر وعربات الفول على النواصى والنسوة الجالسات فى مداخل البيوت وصيادو الجرافة والسنارة وحلقة السمك ..

صحا على حركة فى الغرفة ..

كانت كريستينا قد انشغلت باختيار ثوب من الدولاب المفتوح الضلفتين ..

. سأذهب مع جدى للصلاة ..

سأل بعفوية :

. أين ؟

ضحكت :

. أين يصلى الناس ؟.. فى الكنيسة ..

كان قد ألف الصليب الخشبى الطويل أعلى باب البيت ، وصورة العذراء تحمل طفلها فى جدار الصالة ، وتحريك اليد على الصدر بإشارة التثليث ، وصلوات ما قبل تناول الطعام . لكن الأمر لم يأخذ من باله مساحة تفكير ، ولا شغله . داهمته العبارة بإحساس المفاجأة . عمق منها الصمت الذى يلف البيت ، ويحتويه ..

غلبه الضيق ، فترك البيت إلى قلب المدينة ..

نزل فى الشوارع الطويلة ، والمتعرجة . اختلفت صورة حياتها عن بقية أيام الأسبوع . المقاهى . وحدها . تشغى بالجالسين . يشربون النبيذ والبراندى والشاى والقهوة ، ويلعبون الطاولة ، ويتطلعون إلى الطريق ، ويدخلون فى مناقشات ..

دفعه الشعور بالعزلة إلى مغادرة المكان . مضى فى الشوارع التى تتجه دائماً إلى البحر . يستعيد فى الحديقة المطلة على الميناء ما لم يكن نسيه . كان إذا أحس بالتشوش ، رفع صوته بالغناء . مجرد ترنم ، أو دندنة ، بما يفد إلى ذهنه . لا يحرص على كلمات الأغنية ، ولا حتى إيقاع اللحن ، وما إذا كانت بالعربية أو اليونانية . هو يغنى ما يتذكره . مجرد أن يطرد العزلة والوحدة ..

كان قد اتجه بجنبه إلى الناحية المقابلة من السرير عندما قالت :

. إن لم ترد النوم .. تعال معى ..

رفع إليها أعلى صدره ، وقال :

. إلى أين ؟

. الكنيسة ..

اعتراه ارتباك . قال فى دهشة :

. هل أقف على الباب ؟

. لن يمنعوك من الدخول ..

خالط صوته توتر :

. نسيت أنى مسلم ..

. لا أطالبك بالصلاة .. قف معى حتى تنتهى الصلاة ، ثم نذهب إلى النزهة ، أو نعود إلى البيت ..

دبر الأمر فى نفسه ، قلبه ، ثم بدأ يعد نفسه للخروج :

. أفضّل أن أتمشى فى الشوارع ..

خلف الميناء وراءه ، واتجه إلى " كاستيلا " . هضبة تصعد فيها الشوارع والحدائق والأشجار ورائحة الصنوبر ، والبيوت ذات اللون الأبيض فى الواجهات ، والأزرق فى الأبواب والنوافذ ..

حدّس أن الرجل والمرأة اللذين صحا على وجودهما فى البيت هما والدا كريستينا . الأب فى حوالى الخمسين ، بدا هادئ الملامح ، ولا يميل إلى التواصل . يرنو إلى ما حوله بعينى سمكة ، فلم يدر هاشم إلى أين تتجه نظراته .

يرتدى بنطلوناً قصيراً ينتهى عند ركبته ، وحذاء من الكاوتش . اجتذبه إلى الأم قبول احتواه ، وعينان واسعتان مكحولتان ، وشفتان ورقيتان تفتران عن أسنان صغيرة لامعة ، وغمازتان بجابنى فمها ، تبتسمان مع ابتسامتها الدائمة . فى سن مقاربة للرجل ، تضع على رأسها قبعة عريضة من القش ، وترتدى بلوزة بيضاء من الحرير ، يبين من تحتها قميص أسود ، وجونلة زرقاء ، وتدس قدميها فى حذاء مكشوف ، تطل منه أصابع طليت أظافرها بالمانيكير ..

غالب الارتباك . لم يدر كيف يتصرف ، وشغله توقع تصرفهما : هل يرحبان به ، أو يظهران الضيق ؟..

أزالت كريستينا ما يعانيه حين قبلته أمامهما . اكتفى الأبوان بنظرة محايدة ، فأدرك أنهما يعرفان من هو . كانا يخرجان من الصباح إلى المساء . أعفياه من الجلوس إليهما ، ومن الأسئلة التى ربما تحمل ما يضايقه . أيقظته كريستينا . فى صباح اليوم الثامن . ليودعهما ، قبل أن يعودا إلى كريت .

أحاذر . فى المسافة بين باب البيت وأول الشارع القصير . ألواح الخشب والصناديق والأقفاص وبكرات

الحبال . يعلو صوت عم أدهم فى وقفته على ناصية الزقاق المواجه :

. أهلاً يا أستاذ هاشم ..

ويظهر التهلل :

. مجيئك بركة .. غداً أول أيام سيدك منصور ..

أسأل فى توجس :

. هل يقام سرادق أمام البيت ..

وهو يدارى رنة الإشفاق فى ضحكته :

. نسيت ؟ .. السرادق أمام المقام ..

ثم وهو يهز يديه :

. لن يزعجك أى شئ ..

ويعلو صوته بنبرة تحريض :

. هذه أيام بركة !

***

أهز رأسى دلالة لتصديق لرواية عم أدهم عن تحول المكان وتفرعه فى الشوارع الجانبية إلى خيمة نور يتضوع فيها عبق بخور جميل غائب المصدر ..

ـ من يعرفون مكاشفات سيدك منصور يدركون أن الضوء صادر من داخل المقام ..

يردف فى لهجة مؤنبة :

ـ طالت غيبتك عن الإسكندرية .. أخشى أنك لا تصدقنى ..

أخمن أنه لم يلحظ ـ فى استناده إلى باب البيت الموارب ـ معاناتى فى حمل الطاولة الخشبية

انتزعت ضحكة :

ـ هل أنكر مكاشفات الولى الذى نحيا فى حمايته ؟

لم يلحظ متى كانت البداية ، لكن عبارة الرجل استوقفته :

ـ مصيبة لو أن القرعة ألزمتنا باللعب مع تركيا ..

كانت الأزمة بين اليونان وتركيا تفرض نفسها على أحاديث المقهى . ربما تبدأ بتوقعات الطقس وأحوال الصيد والأفواج السياحية وحركة الميناء . تتداخل عبارة عن الأزمة السياسية . تبدو بوصلة تتجه إليها كل المناقشات . تختلط التحليلات حول المناورات العسكرية ، وتهديد كل بلد للآخر . يكتفى بالتابعة الصامتة . يهز رأسه ـ دون معنى محدد ـ

استجابة لطلب التعقيب ، أو المساندة فى الرأى . البواعث والتفاصيل والتوقعات غائبة . يعجز عن المشاركة على أى نحو ..

أعاد له الجلوس إلى السيدة العجوز حب يوم الأحد . الخواء الذى يطالعه فى الشوارع تمطى بالملل فى نفسه . كره اليوم كله . ثم ألف التردد على المقهى . فى نهاية شارع جانبى متفرع من سوق الخضر . عرف الكثير من المترددين عليه بأسمائهم ، ودخل معهم فى مناقشات ، واكتفى بتذكر ملامح الباقين ..

كان الوقت مساء . علت الأضواء فى الشوارع والنوافذ والشرفات وأعلى الأسطح وعلى واجهات المحال ، وترامى هدير الأمواج وراء البنايات العالية وتقاطعات الشوارع المفضية إلى البحر . وثمة ريح باردة مشبعة برائحة اليود والأعشاب ، تحرك أطراف المظلات فى المقهى . جلس الرواد حول الطاولات الرخامية المستطيلة ، داخل المقهى وخارجه ، تناثر بينها ترابيزات من الحديد ، رفيعة ، ذات سطح نحاسى مستدير ، واختلطت النداءات

والصيحات وأصوات لاعبى الطاولة وقرقرة النارجيلة والأضواء والظلال وسحب الدخان ..

. أرى أن نبتعد بالرياضة عن القضايا السياسية ..

قال له الرجل :

. هذه مسألة نعرفها نحن أبناء اليونان ..

لم يعد يعانى تأثيرات الغربة : اللغة ، سحب الإقامة ، مداهمات الشرطة ، النظرات الرافضة ، أو المستريبة ..

قال كأنه يدفع تهمة :

. أنا الآن يونانى ..

قال الرجل :

. نحن يونانيون . وأنت تستوطن اليونان ..

ثم وهو ينحى مبسم النارجيلة :

. إن لم تعجبك أحوالنا تستطيع العودة إلى بلدك ..

فوت الملاحظة :

. أنا لا أتكلم فى السياسة .. مجرد ملاحظة خطرت لى ..

قال الرجل فى نبرة حاسمة :

. احتفظ بملاحظتك لنفسك ..

توالى الأعوام أقنعه بأن بيريه هى الحاضر والمستقبل . ارتبطت حياته بالمكان . أفلح فى إهمال ما مضى ، ونسيانه كأنه لم يكن ، وإن ظلت فى ذاكرته ومضات الطفولة . حتى رسائله المتباعدة إلى توفيق ، لم يكن يتحدث فيها إلا عما يحياه ، عن عمله فى بيريه ، والناس الذين يعمل معهم ، أو يلتقى بهم . لم تفلح محاولات المضايقة ، ولا مظاهر الجفاء فى تحريك فكرة العودة إلى الإسكندرية داخل نفسه . لم يطرح السؤال : لماذا ، وإن لم يتخيل الحياة بعيداً عن كريستينا ..

فى لحظة غير متوقعة يبين الاختلاف عن ملامحه . يكتشف المرء أن اختلاطه بالمجتمع الوافد إليه هو اختلاط الزيت بالماء : سؤال ، ملاحظة عابرة ، تعبير يغيب عنه فهمه . عزلته المشاعر المتماوجة عن نثار المناقشات المتلاغطة من حوله ..

عاب عليه ميخاليدس أنه لم يحاول الاندماج . اكتفى بالوقوف للبيع ، وبمناقشات المقهى ، والفرجة على التليفزيون . بعد الزواج قصر عالمه على كريستينا وحدها .

لم يحاول التعرف إلا على الملامح الظاهرة من بيريه ، ومن اليونان كلها ..

وعلا صوت العجوز :

. أنت حتى لم تعلن تعاطفك مع ناد ضد الأندية الأخرى كبقية الشبان فى سنك !

أهمل التحول فى جلسات المقهى . يعطونه ظهورهم . يرمقونه بنظرات رافضة . يلمزون بكلمات يفهم أقلها ، وإن حدس أنها تشتمه . تبين أن هجرته . التى طالت . لم تزحزحه عن موضعه فى الهامش . لم يعد يطيل الجلوس . يتشاغل بالتطلع إلى الطريق ، ثم يمضى بلا هدف محدد . حتى المشاهد التى تكررت رؤيته لها ، كأنه . من خطواته المتباطئة . يراها للمرة الأولى ..

ضايقه قولها :

. إذا شغلتك ملاحظات لا بأس من أن تخصنى بها ..

أردفت فى مرح متكلف :

. إنهم يكرهون تدخل الأجانب فى أمورهم ..

قال فى دهشة :

. الأجانب ؟!.. أنا لم أعد أجنبيا ..

. هذا صحيح .. لكن ربما ضايقك البعض على ملاحظة تقصد بها النفع ..

تمنى لو أنه ظل صامتاً ، فلا يورط نفسه فيما لا شأن له به ..

قال لها . فى اليوم الثالث لانتقاله إلى بيت ميخاليدس : .

. مصر وطن عانيت فيه الغربة ، واليونان غربة وجدت فيها الوطن ..

. هذا شعر ..

. ما أقوله هو الحقيقة .. بيريه الآن وطنى وسكنى .. وهى بك حبى أيضاً..

بدت له الحب الذى يتطلع فى أفقه إلى ما كان مجهولاً ، أو غائباً . هى الحاضر والمستقبل . العشرة والوطن والطمأنينة ..

هل يظل أجنبياً إلى الممات ؟

اقتحمه شعور بأن كل ما حوله يعاديه ، وأن عليه أن يبادله العداء نفسه ..

هو أجنبى منذ قدم إلى بيريه . لم يجاوز هذه الصفة بتعلم اللغة اليونانية ، ولا بالزواج من كريستينا ، ولا بمعاناة الهموم التى يعانيها أبناء المدينة ، ولا بقراءة كازنتزاكس وكفافيس وساماراكى وفاليناس . هو شجرة لم تثبت جذورها ..

طالت فترة نشرة الأخبار . صعب عليه فهم شىء من وصل الكلمات التى عرفها . ولم تكن السياسة مما يشغله . أدار مؤشر الراديو . التقط ما توقفت عليه أصابعه . تأكد من الصوت . أغنية لأم كلثوم . علا بالصوت ، وإن بدا بعيداً ، هامساً . اختلطت ملامح الإسكندرية فى ذهنه بما لم يكن يتوقعه . أضاف سماع الراديو إلى الرسائل المتباعدة التى كان يبعث بها توفيق ..

قالت كريستينا :

. كيف تجيد اليونانية إذن ؟

قال :

. أحاول الكلام باليونانية اليوم كله ..

واغتصب ضحكة :

. اسمع الراديو حتى لا أنسى العربية ..

مضى بعيداً عن الشوارع التى ألفها . من الصعب أن يحدد موضع البحر ، لكنه كان يستشعر وجوده . هناك ، فى نهاية الطريق ، أو وراء أبراج الكنائس والبنايات العالية . لا يراه ، وإنما تترامى أصداؤه من الرائحة التى لا يخطئ تمييزها ، ومن مساحة الضوء التى تعكس امتدادات الأفق الخالى ..

كان يخبط فى الشوارع بلا هدف محدد ، بلا رغبة حتى الفرجة على ما رآه من قبل . ينفصل الذهن عن القدمين ، فلا شأن له بالأرصفة التى تسير فوقها . يومض الذهن باختلاط بيت أحمد كشك وسطح الباخرة وجلسة جمعة فوق الكنبة وتصاعد الزغاريد من مقام الولى ومحطة الركاب البحرية وانحناءة الطريق إلى الكورنيش ولطيفة ومكتب صرافة فى ميناء تولوز والنظرة المتوجسة للضابط اليونانى وبوابة الجمرك رقم واحد وأضرحة الأولياء بميدان المساجد ..

ثمة شعور بالحزن كان يدفع خطواته . كأنه يبحث عن ذاته ، عن ملامح يفتقدها فى الشوارع التى يمضى فيها . يحرص أن يكون البحر فى موازاة الشوارع التى يسير فيها ،

أو فى مواجهتها . لم يعد الطريق هو ما يبدأ بالبيت ، وينتهى بالحديقة المطلة على الميناء . شاهد ما كان قد تعرف إليه من قبل مرة أو مرتين . فى صحبة كريستينا ، أو مع أصدقاء ، وما لم يكن شاهده . اكتشف حياً كاملاً للصيادين . يختلف عن بقية أحياء بيريه : البيوت الصغيرة ، المتساندة ، فى مواجهة البحر ، تختلف عن بيوت السيالة والأنفوشى ، وإن ذكرته بها مسالك متشابكة ، ومتقاطعة ، من الشوارع والحوارى والأزقة ، غزل الصيد المنشور على امتداد الشاطئ ، وعلى الرصيف ، روائح الطحالب والأعشاب والأسماك المتعفنة . بدت له بيريه غير التى تصور أنه يعرفها : الميادين والبنايات العالية والحدائق والتماثيل . هل كان العجوز يشعر بالإحساس الذى يمضّه الآن ؟ هل كان شعوره بأنه أجنبى هو الذى دفعه للعودة إلى اليونان ؟!

. كانت الإسكندرية مدينتى .. لولا أن الظروف تغيرت ..

وهز إصبعه :

. العاطفة بلا معنى إن عانيت فى حياتك ..

ثم وهو يشيح بوجهه بعيداً :

. وافقت على العودة أمام إصرار زوجتى وألكسندر

.. والد كريستينا ..

وعلا صوته بالتأثر :

. أحن إلى الإسكندرية .. لكن .. الظروف ..

اليوم العاشر

أنزل من البيت فى الضحى . أميل إلى شارع صفر باشا ، ومنه إلى شارع أبو وردة ، أمضى فى رأس التين إلى شارع إسماعيل صبرى ، فشارع التتويج . معى عنوان الشركة التى يعمل فيها توفيق . أتأمل البناية على ناصية شارع سوق السمك القديم . ثمة عجوز منكفئ الجسد ، اتجه ناحية الجدار ، وشلح جلبابه ليتبول ، دون أن تشغله النظرات الغاضبة . أراجع العنوان فى يدى قبل أن أصعد إلى الطابق الثانى . أدفع الباب الزجاجى إلى صالة تحيط بها حجرات أبوابها المغلقة من الزجاج المسنفر ، وصفت لصق الحوائط وفى الزوايا مقاعد من الجلد ، وفى المنتصف طاولة مستطيلة ، فوقها خرائط ونشرات ، بينما ينبعث من الأبليكان المتقابلان أضواء متماوجة وظلال ..

. هاشم !..

يدفعنى بيد مترفقة ، ويرنو إلى ملامحى متأملاً :

. أعرف أن هذا هو اليوم العاشر لعودتك ..

ـ لم أغادر بحرى إلا لمشاوير قليلة ..

لم يعد هو البيت القديم . ألتقى بمن لا أعرفهم فى صعودى ، ونزولى ، على السلم . أخمّن أنهم أطفال ما قبل السنوات التى غبت فيها . لا يبدو أنهم تعرفوا إلى ، ولا وجدت فى ملامحهم ما يذكرنى بالزمن القديم . يتلامس الكتفان فى مجاوزة السلم ، أو أكتفى بتحية سريعة ..

يقول لى توفيق :

ـ لا أحد يعيش بلا مشكلات ..

ويلتف صوته بحزن :

ـ قبل وفاته .. باع أبوك البيت لجار الطابق الثالث .. هو الآن يثير المشكلات لتخلو الطوابق الثلاثة لأسرته ..

وألاحظ ارتجافة فى شفته السفلى :

ـ أن ينساك الجيران خير من أن يطلبوا طردك ..

ويغمض عينيه :

ـ المشكلات جزء من حياتنا ..

توفيق هو أقدر الجميع على فهمى ، ومساعدتى إذا طلبت النصيحة ، أو واجهت مشكلة . صوته الهادئ يهبنى

طمأنينة لم أكن أجدها فى هدير صوت أبى ، ولا نصائح أمى المفعمة باللوم ، ولا ملاحظات محمود العابثة ..

كثيراً ما كان يلجأ إلى توفيق . يطلب النصح ، أو يناقش معه خطوات أزمع اتخاذها ، أو يبدى ملاحظات فى أمور تتصل بالأسرة . لم يكن يميل إلى الكلام ، لكنه كان يفرض رأيه بشخصيته الهادئة . لا يرده . كما يفعل أبوه . ولا يظهر الغضب ولا الاستياء . يجيد الإنصات ، ويجيب عن الأسئلة ، ويوضح ما غمض . يشعر أنه يجيد قراءة ما بداخله . كان يعامله باعتباره ابناً ، وليس شقيقاً . الأعوام التى تفصل بينهما فرضت عليه هذا السلوك ..

. هل تنوى العودة ؟

. أنا عدت بالفعل ..

. أقصد اليونان ..

. لا ..

. بالمناسبة .. ألا تنوى زيارة الوالدين وجمعة ؟

يربكنى السؤال . لم يشغلنى ، ولا وضعته فيما أنوى إنجازه فى الأيام المقبلة ..

ظل المصريون داخل السفارة بأثينا ، وعلى بابها ، حتى جاءت الموافقة بنقل جثمان الشاب المهاجر إلى أرض الوطن . قال وهو ينزل المنحدر المفضى إلى قلب المدينة : لماذا نحرص على أن ندفن فى بلادنا ؟ أليس ما تحت أرض الدنيا كلها تراباً ؟!

قال زميله فى الشقة :

. هو يدفن فى وطنه .. لأنه وطنه ..

يبدو على توفيق اهتمام وهو يتجه ناحيتى :

. ماذا تعد للمستقبل ؟

لا أذكر أنى رأيته يرتدى . قبل أن أغيب عن الإسكندرية . هذه النظارة الطبية . غطى الشيب شعر رأسه ، وتخللت شاربه شعيرات بيضاء . وبدا طاقم أسنانه الصناعية غير متسق مع فمه ، والابتسامة السخية تملأ وجهه كله ..

. ربما عملت فى الميناء مع يوسف صديق .. هل تذكره ؟.. معى مبلغ لا بأس به ..

لم تكن العودة النهائية مما يدور لى ببال . أملى الغضب ما قلته لكريستينا . سكبت البنزين ، فازدادت النيران

اشتعالاً . داخل التحدى قرارى الغاضب . غاب عن تصورى حتى العمل الذى أعود به إلى الإسكندرية ، قبل أن ألتقى بيوسف صديق فى الدائرة الجمركية ، كانت الصورة ضبابية ، ولعلها لم تكن موجودة ..

التقى بيوسف صديق داخل الدائرة الجمركية . البسمة الودود تملأ وجهه : عدت لتعمل معى . أشار إلى المخازن على امتداد الرصيف فى باب واحد . لم يكن قد اتخذ قراراً ، ولا أعد نفسه لأى شئ . نفض رأسه من السؤال : هل هو الحنين ، أو الشعور بأن الرمال تسربت من يديه ؟ وهل كان يطمئن إلى الحياة فى بيريه لو لم يضايقه رواد المقهى ؟ . اكتفى بتأمل التغير الذى وسم ملامح يوسف صديق ، بعد أن افترقا فى بيريه . قبل عشر سنوات .

واتسعت ابتسامته :

. أستأذنك فى إجازة لاستعادة صداقة المكان ..

***

لم أكن لاحظت وجود هذا المقهى من قبل . سرت أمامه فى الطريق إلى شارع الميدان والعودة منه ، فأهملت

ما بداخله . ألمح " النصبة " . بعفوية . فى نهاية الدكان الملتف برمادية شحبت فيها الملامح ..

أبحث عن مكان يبعد عن الباب ، فلا يرانا من قد يعرفنا من أبناء الحى ..

أواجه مجدى علام بنظرة متأملة : احتفظت تقاطيع وجهه بالملامح التى أذكرها . الجبهة الضيقة ، والنظارة الطبية على عينين دائمتى التلفت ، والأنف الطويل ، المقوس ، أشبه بمنقار نسر ، والشارب الكثيف يتدلى عند جانبى فمه . حتى شعر رأسه ظل على كثافته ، وأضفى عليه الشيب الذى كسا فوديه وسامة . يرتدى بدلة شاركسكين أميل إلى الزرقة ، وياقة القميص المقفولة تتدلى منها كرافتة مختلطة الألوان ..

يذكرنى مجدى علام بقراءاتنا القديمة ، ومناقشاتنا فيما كنا نقرأه . أصارحه بأن الحياة اجتذبتنى ، فلم أعد أقرأ حتى الصحف . حتى زيارتى إلى أعمامى وأخوالى فى محرك بك وغربال والإبراهيمية ، أزمع إرجائها إلى ما بعد استقرارى . أصحب توفيق أو محمود . أخشى أنى نسيت . بمضى الأعوام . سحنهم ، أو أنهم نسوا سحنتى ..

يتجه إلى بملامح جادة :

. أريد أن أحدثك فى موضوع تأجل عشرة أعوام ..

أخلى ملامحى لتساؤل ..

. الآنسة فردوس ..

. مالها ؟

. اعتذر الوالد لما تقدمت إليها ..

أقاطعه :

. أذكر أنها هى التى اعتذرت ..

. ربما تغيّرت ظروفى الآن ..

. وظروفها .. فردوس لم تعد صغيرة ..

. وأنا أيضاً كبرت ..

. أظن إنها قاربت الأربعين .. سن قد لا تصلح للإنجاب ..

. أصارحك بأنى تأخرت فى عدم التقدم لأخريات لأنى لا أستطيع الإنجاب ..

ثم وهو يرفع إصبعه ليعيد النظارة المنزلقة على أنفه إلى موضعها :

. لا شأن للأمر برجولتى .. التحاليل أثبتت صعوبة الإنجاب ..

وران على صوته خفوت :

. الآنسة فردوس اختيارى منذ سنوات بعيدة .. أثق فى زوال الظروف التى أرجأت زواجنا ..

كان يراها . فى موضعه داخل نافذة الطابق الأرضى المطلة على شارع أحمد كشك . تنزل من البيت ، وتعود إليه . بمفردها ، أو بصحبة أمها أو أحد أخوتها . يكتفى بالنظر بجانب عينه . تجتذبه الملامح الكلية . يتأمل . فى ابتعادها . انسدال الشعر الأسود على الكتفين وأعلى الظهر ، والقوام الرشيق ، والساقين المدملجتين ، والبشرة البيضاء . تناقل الجيران حكايات عن شبان تقدموا لخطبتها . إلحاح رفضها دفعه إلى كتم مشاعره ..

طرق هاشم باب الشقة . أخبره أنهم انتقلوا من بيت شارع إسماعيل صبرى ، فعليه أن يصعد بالإيجار إلى الشقة فى الطابق السادس . فكر فى أن يدعوه لزيارته ، يأخذ منه ويعطى . لمح هاشم مكتبته ، فطلب الاستعارة . تبادلا القراءات ، لكنه ظل يعانى إحساساً قديماً بالخجل ، يملى

عليه الارتباك والتردد وكتم الفعل . ربما تردد فى اختيار الصورة التى يطالع بها الآخرين : هل يحرص على الابتسام ، أو يرسم الرزانة على ملامحه ؟ وهل يهدئ صوته ، أو يرفعه . يفضل . غالباً . أن يتقوقع فى الصمت . وحين واتته الجرأة ، لم يناقش الأب فى رفضه . لم يكن يمتلك موهبة الرد على الملاحظات أو الأسئلة التى تضايقه ، أو تغيظه . تفجأه الكلمات . يتردد فى الإجابة ، ثم يستكين إلى الصمت . تخلى حتى عن التطلع من النافذة ، وعاد إلى طبيعته المنطوية ..

اعتادت النزول إلى شارع الميدان وسوق راتب والمنشية الصغيرة وصفية زغلول وسعد زغلول . تضيف إلى ما تشتريه من لوازم البيت ما قد يحتاجه الأطفال الذين تتوقع إنجابهم . ما أقتنيه اليوم ، ربما يصعب انتزاعه من موجات غلاء لا تعرف الانحسار !

التقطت شكوى فاطمة لأمها بأن ناجى قشطة يجبرها على الإنجاب ..

علا صوتها بالغيظ :

. لا ترفسى النعمة !

اتجهت إليها فاطمة بنظرة ساخطة :

. أنت لا تعرفين شيئاً ، فاسكتى ..

. الرجل يريد الأولاد .. وأنت ترفضين .. ما الذى لا أعرفه ؟

ثم وهى تشرع أصابع يديها :

. عن نفسى .. إذا تزوجت فسأنجب عشرة

نقلت فاطمة نظرتها الساخطة ، المتحيرة ، بين الأم وفردوس . هزت فى وجه الأم يداً منفعلة :

. قولى لها !

كانت ترفض فكرة الزواج ، وإن أعدت نفسها له . فى بالها يوسف صديق . حتى بعد أن تبينت أنه لا يصلح لها ، وحتى بعد أن ركب البحر لم تسقط صورته . أسلمت نفسها إلى حلم ضبابى الملامح . تدس فى الحقائب ما تقتنيه ، وما يهديه لها أخوتها ، وأمها أحياناً . تحتفظ بكل ما ترى أنه يصلح لبيتها . كان هاشم يسأل فاطمة عما تريد أن يأتى به إليها من ركوب البحر . تكتفى فاطمة بالهمس : سلامتك . تقدم فردوس قائمة بأسماء كريمات وعطور وأدوات تجميل ، وتطلب أن ينتقى لها مجلات الموضة ..

يفاجئنى بالسؤال :

. أين الآنسة فردوس الآن ؟

. فى بيت أخى توفيق ..

تزوجت فاطمة من ناجى قشطة . توقع أن تلحق بها فردوس . اكتفى بملاحظة آراء أبيه ، ورفض الفتاة . لم يحاول حتى أن يسألها عن بواعث الرفض . تنبه . بتوالى الأعوام . إلى أنه قارب الخمسين . أزعجه سؤاله لنفسه : هل يطول انتظاره حتى يفوت سن الزواج والإنجاب ؟

رفض الجميع أن تعيش بمفردها . قال توفيق لحديثها عن الونس بجوار مقام سيدى منصور :

. إما أن يصعد إليك أو تنزلى إليه .. وهذا لن يحدث ..

قالت :

. هل نترك البيت خالياً ؟

. لابد أن يعود هاشم إلى الإسكندرية .. لا بأس من أن تقيمى معه !

وأومأ برأسه :

. والآن .. لمى هدومك ..

يقول مجدى علام :

. ليتك تعرض الأمر عليها ..

ثم بلهجة محرضة :

. أريد أن تملأ بيتى .. بلا أولاد ولا بنات ..

***

أنادى على تاكسى :

. زيزينيا ..

أنزل من الترام فى محطة زيزينيا . أتجه إلى الشارع المقابل ، ثم أميل إلى اليمين . أعيد قراءة العنوان . أتطلع إلى البناية ذات الطوابق الستة . تطل فى الواجهة على مقهى إنترنت ، ومخزن بامتداد ثلاثة أبواب ، ومن الجانب على شارع الترام ، وطريق الكورنيش ، والبحر فى مدى الأفق . أسرع فى خطواتى لأتيح للأولاد معاودة لعب الكرة ..

أتأملها بجانب عينى : لم تحاول أن تخفى شعرها الذى خالطته شعرات بيضاء ، أو تصبغه . عقصته فى ضفيرة كورتها فوق رأسها . تطل من عينيها البنيتين ، العميقتين ، نظرة هادئة ، ودوائر التجاعيد الصغيرة أحاطت بالعينين والفم . لم تعد تعنى بزينتها ولا ثيابها ، كما كان حرصها قبل

عشر سنوات . بدت فى جلبابها الفضفاض أقرب إلى السمنة . عباءة من الساتان الأزرق . تنسدل على جسدها ، فلا يظهر منه حتى قدميها ..

. توقعت زيارتك منذ عودتك ..

. اطمأننت عليك من توفيق ..

أضيف فى ابتسامة معتذرة :

. انشغلت بإعداد الشقة .. كانت خرابة ..

. خمس سنوات .. وربما أكثر .. لم يدخلها أحد ..

. هى الآن صالحة للإقامة ..

يتناهى من الحجرة فى نهاية الطرقة صوت شاب :

. ماما فردوس ...

تقول لنظرتى المتسائلة :

. سامح .. ابن توفيق ..

وتربت صدرها براحتها :

. ينادينى ماما .. أنا الذى ربيته ..

تقول كالمنتبهة :

. عن إذنك ..

وتمضى ناحية الحجرة ..

تستعيد جلستها :

. ينامان بعد العودة من الجامعة .. طلب كوب ماء وأكمل نومه ..

وأنا أتأملها :

. تحبين الأولاد ؟

. إنهم أبنائى مثلما هم أبناء توفيق ومايسة ..

. لا أتصور حياتى بدونهم ..

. ألا تفكرين فى بيتك ؟

. بيتى ؟

. بيت زوجك ..

. ماذا تقول ؟

. تذكرين الأستاذ مجدى علام .. مدرس التربية الرياضية بمدرسة راتب باشا ..

زوت ما بين حاجبيها متذكرة ..

أقول :

. جار الطابق الأول

تهز رأسها دلالة التذكر ..

أقول :

. يريدك فى بيته ..

تظل صامتة ..

. السكوت علامة الرضا .. أليس كذلك ؟

أدركت . فى لحظة أسى . أن المستقبل ليس لها . اعتادت حضور حفلات الزفاف . تصفق ، وتردد الأغنيات . تنسى أن العروس تصغرها فى السن . لم يعد يشغلها أن تكون موضع العروس فى الكوشة . حتى طرحة الزفاف التى اشترتها . منذ سنوات بعيدة . من العطارين ، لم تعد تأخذها من الدولاب ، وتفردها على السرير . تقلب فيها ، وتتأملها . لم يعد توالى السنوات يعنى شيئاً لها . الرجل الوحيد الذى راق لها الزواج منه ، تبينت أنه متزوج ، وله ولدان . وجدت فى بيت توفيق ما لم يتح لها ، ووجدت فى ابنيه تعويضاً عن الأبناء الذين تطلعت إلى إنجابهم ..

أقول منتبهاً :

. صارحنى بأنه قد لا ينجب ..

وأتشاغل بهش ذبابة من حافة الكوب :

. هذا ما قالته التحليلات ..

كان توفيق يلاحظ شرودها . تتمنى لو أن الزمن عاد أعواماً . يتقدم إليها من تقبله . لا تسرف فى الأسئلة ، ولا تناقش . هو رجل فيه عيوب الرجال ، وفيه مزاياهم أيضاً ..

. ومن قال إنى أريد الإنجاب ؟

. أنت تحبين الأولاد ..

. فاتت فرصة الزواج بشروطى ..

. هل أبلغه بالموافقة ؟

ظلت ساكتة ..

***

. محمود ..

يبدو فى جلسته على كنبة الصالة . الكنبة نفسها التى كان ينام عليها جمعة . كأنه ينتظر قدومى . كانت كل الغرف قد فتحت ، وفتحت النوافذ للشمس والتهوية . بدت الشقة الخالية أوسع من مساحتها فى الظلمة الشفيفة ..

. خشيت أن تكون بدلت المفتاح ..

ثم وهو يشير إلى راديو ترانزستور فوق كرسى :

. هذا الترانزستور يذكرنى بالمرحوم جمعة ..

لما انتقلت الأسرة من بيت إسماعيل صبرى ، ثبت رمضان السعدنى بنفسه حامل الراديو على الجدار ، فى ركن الصالة . جعله أبعد من أن تصل إليه يد جمعة ، حتى لو لجأ إلى كرسى . اكتفى بإخلاء موضع فوق ماكينة الخياطة لجهاز التليفزيون ..

ويومئ بعينيه إلى ما حوله :

. فكرت فى أن أصحبك لتقيم معى ..

أقول فى نبرة تقريرية :

. لم أعد أتصور أنى أبتعد عن بحرى ..

قال :

. أفكر فى العودة إلى مصر ..

قالت كريستينا :

. لماذا ؟

. أسباب كثيرة ..

. هل هو الحنين ؟

. ربما ..

. لمن ؟

. سهل أن أتحدث عن الحنين إلى الأهل .. لكننى أحن إلى ناس كثيرين .. وأماكن كثيرة ..

ثم وهو يحاول السيطرة على مشاعره :

. الطير يتجه نحو الجنوب وراء علامات لا يراها غيره ..

عانى . فى البداية . جهل اليونانية ، فهو لا يكلم إلا من يحدثه بالعربية ، أو يلجأ إلى الإشارة ، أو يكتفى بالصمت .. ثم فاجأته ألفة المكان بمعاناة الغربة ، والوحشة ، وتوقع الخطر ..

شحب التصور بأنه يمكن أن يقيم فى المدينة التى أحبها . الإسكندرية هى المدينة التى لابد أن يعود إليها . لا يتصور أنه سيظل بعيداً عنها . فى باله شوارع بحرى وحواريه وأزقته ، والبيوت القديمة ، المتلاصقة ، والمساجد وتلاقى الأذان ومقامات الأولياء والميادين والساحات والكورنيش وصيد السنارة والجرافة وحلقة السمك ومرسى القوارب وقلعة قايتباى وسراى رأس التين وضوء البوغاز والطائرات الورقية . فى باله البيت المطل على مقام سيدى

منصور . ابتعاده عن بحرى يقربه من الحياة التى أمضاها هناك ..

حاصره الإحساس بالوحدة . يستعيد ملامح غائبة ، أو يخترعها ، يصل البدايات بالنهايات التى يتصورها ..

قالت كريستينا :

. سافر .. اقض إجازة وعد ..

. وأنت؟

. أنا ؟

. أنت .. ستعودين معى ..

. لا أتصور هذا ..

زمت شفتيها ، واستطردت :

. لا أتصور أنى أبتعد عن بيريه ..

. الزوجة تقيم حيث يقيم زوجها ..

. العكس هو ما نحياه الآن .. لماذا نغيره ؟

. لابد أن أعود إلى الإسكندرية ..

. لا بأس .. سأنتظرك حتى تعود ..

. قد لا أعود !

فى بساطة حاسمة ، أذهلته :

. وأنا لن أغادر بيريه ..

لم يكن يقصد المعنى الذى عبرت عنه كلماته . باح بما يستعيد به صورة الحياة التى يفتقدها . ربما تعمد . فى تلك اللحظة . أن ينبهها إلى أيامه الأولى قبل أن يأتى إلى بيريه ..

قال :

. لو أنك وافقت على السفر معى إلى مصر ، فلن تشعرى بالغربة ..

وعكس التماع عينيه ما يعانيه من توتر :

. فى بيريه أحياء كثيرة تذكرنى بالإسكندرية ..

وهى تهز سبابتها :

. فى المرة القادمة نسافر معاً .. ونعود معاً ..

أغمض عينيه على ما لم يكن يتصوره :

. لن أدفعك إلى ما ترفضيه ..

حاولت أن تثنيه عن العودة بالباخرة :

. ركبت الباخرة لأن ذلك كان عملك ..

ثم وهى تعدل ياقة قميصه :

. الآن .. أنت مجرد مسافر تهمه راحته ..

وتحيرت دمعة على خدها :

. رحلة الباخرة تستغرق أياماً . أما رحلة الطائرة فلن تأخذ سوى ساعات ..

. كان آخر رؤيتى للإسكندرية من البحر . أريد أن تكون أول رؤيتى لها . عند العودة . من البحر ..

يهز محمود رأسه ، ويشير بيده دلالة عدم الرضى عن المكان ..

اختلطت الأسئلة والاحتمالات والمشاعر والذكريات والأشياء والألوان وسحن البشر ..

أسند مرفقى إلى مسند الكرسى . أغمض عينىّ ، وأفتحهما . أحاول أن أرتب الكلمات المتشابكة ، والمتقاطعة . أتكلم ، وأتكلم ..

تتصاعد . من مقام سيدى منصور . زغرودة طويلة . أحدس أنها لامرأة أوفت نذرها .

" **محمد جبريل** " **٢٠٠١/١٠/٢٦**

مؤلفات محمد جبريل

١ . تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ . نفد

٢ . الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب . الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر

٣ . مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة . ١٩٧٣ هيئة الكتاب

٤ . انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر . ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية

٥ . إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر . الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٦ . مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية

٧ . هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب . ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية

٨ . من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب . الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر

٩ . قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب

١٠ . الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب

١١ . قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال

١٢ . النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ . هيئة الكتاب

١٣ . الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب

١٤ . نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة

١٥ . اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال

١٦ . السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٧ . آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٨ . قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة

١٩ . زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب

٢٠ . الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر . ترجمت إلى الإنجليزية

٢١ . حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة

٢٢ . سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب

٢٣ . انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب . ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية

٢٤ . أبو العباس . رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٥ . ياقوت العرش . رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٦ . البوصيرى . رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٧ . على تمراز . رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٨ . مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة . الطبعة الثانية ٢٠٠٠ المجلس الأعلى للثقافة

٢٩ . حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣٠ . الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ . دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣١ . حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ . هيئة قصور الثقافة

٣٢ . الميناء الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ . مركز الحضارة العربية

٣٣ . رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ . مكتبة مصر

٣٤ . بوح الأسرار (رواية) ٢٠٠٠ . روايات الهلال

٣٥ . مد الموج (تبقيعات نثرية) ٢٠٠٠ . مركز الحضارة العربية

٣٦ . البطل فى الوجدان الشعبى (دراسة) ٢٠٠٠ . هيئة قصور الثقافة

٣٧ . نجم وحيد فى الأفق (رواية) ٢٠٠١ . مكتبة مصر

كتب عن المؤلف

١ . الفن القصصى عند محمد جبريل . مجموعة من الباحثين . ١٩٨٤ مكتب منيرفا بالزقازيق

٢ . دراسات فى أدب محمد جبريل . مجموعة من الباحثين . ١٩٨٦ مكتب منيرفا بالزقازيق

٣ . صورة البطل المطارد فى روايات محمد جبريل . حسين على محمد (دكتور) . ١٩٩٩ دار الوفاء بالإسكندرية

٤ . فسيفساء نقدية : تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل . ماهر شفيق فريد (دكتور) . ١٩٩٩ دار الوفاء بالإسكندرية .

٥ . محمد جبريل .. موال سكندرى . فريد معوض وآخرين . ١٩٩٩ كتاب سمول

٦ . استلهام التراث فى روايات محمد جبريل . سعيد الطواب(دكتور) . ١٩٩٩دار السندباد للنشر

٧ . تجربة القصة القصيرة فى أدب محمد جبريل . حسين على محمد (دكتور) . ٢٠٠١ كلية اللغة العربية بالمنصورة

٨ . فلسفة الحياة والموت فى رواية الحياة ثانية . نعيمة فرطاس . ٢٠٠١ أصوات معاصرة

٩ . روائى من بحرى . حسنى سيد لبيب . ٢٠٠١ هيئة قصور الثقافة